م. بلقيس الأحمر

الذين تركوا ظلالهم

في صنعاء، حيث تبدو المدينة من بعيد هادئة خلف جدرانها القديمة ونوافذها الصغيرة، تعيش خديجة حياة عادية، وتحلم بأن تكون مذيعة تنقل أصوات الناس كما هي. لكنها تكتشف تدريجيًا أن المدينة التي عاشت فيها تخفي حكايات أكثر مما تقول، وأن الصمت الذي اعتاده الناس ليس دائمًا اختيارًا.

تبدأ الحكاية حين يعود إلى حياتها سؤال قديم ظنت أن الزمن دفنه :ماذا حدث لوالدها؟

كان الأب غائبًا منذ سنوات، وكانت الرواية التي سمعتها خديجة طوال حياتها تبدو بسيطة ومغلقة. لكن ظهور رسالة غامضة، ثم دخول مالك إلى مسار الأحداث، يكشفان لها أن اختفاء أبيها لم يكن حادثًا عابرًا، وأن وراء الغياب شبكة من الأسرار والوعود والخوف.

كلما اقتربت خديجة من الحقيقة، اكتشفت أن بعض الأشخاص الذين ظنت أنهم رحلوا من حياتها ما زالوا حاضرين بطريقة أخرى؛ في الأوراق القديمة، وفي الذاكرة، وفي القرارات التي اتخذها الآخرون نيابة عنها. وتظهر شخصية غامضة تعرف عن ماضيها أكثر مما تعرفه هي عن نفسها.

تتحول رحلة البحث عن الأب إلى رحلة للبحث عن خديجة نفسها :عن الحقيقة التي أخفيت عنها، وعن الأسباب التي جعلت أشخاصًا قريبين منها يصمتون، وعن الثمن الذي قد تدفعه حين يصبح الصمت مستحيلًا.

لكن الحقيقة، حين تصل أخيرًا، لا تأتي كما تخيلتها.

إنها لا تعيد الغائبين، ولا تصلح ما كسره الزمن، ولا تمنح أصحابها دائمًا الراحة التي ينتظرونها. وكل ما تفعله أنها تضع الماضي أمام الحاضر، وتجبر خديجة على أن تختار :هل تحمل ما عرفته وتصمت، أم تمنح الحقيقة صوتًا مهما كان الثمن؟

»الذين تركوا ظلالهم «رواية عن الغياب والذاكرة والخوف، وعن مدينة تخبئ في أزقتها حكايات أهلها، وعن أشخاص قد يرحلون بأجسادهم، لكنهم يتركون وراءهم ظلالًا تظل تسير مع من بقي.

القسم الأول: المدينة التي خافت أن تتكلم

الفصل الأول: صنعاء التي لا تُرى من الكاميرا

لم تكن خديجة تخاف من صنعاء.

كانت تخاف مما يحدث لصنعاء حين تطفئ الكاميرات.

وهذا فرق صغير في العبارة، لكنه كان، في تلك الأيام، الفرق كله.

حين دخلت المدينة في الصباح، كانت السماء منخفضة كأنها تريد أن تسمع ما يقوله الناس في الشوارع. الجبال المحيطة بصنعاء بدت من بعيد ثابتة، صامتة، واثقة من عمرها الطويل، بينما كانت المدينة نفسها تبدو كأنها تحاول أن تخفي عمرًا آخر؛ عمرًا من التعب لا يظهر في الصور.

من نافذة السيارة، أخذت خديجة تراقب الوجوه.

رجل يحمل كيسًا صغيرًا ويمشي مسرعًا.

امرأة تضم طفلًا إلى صدرها، وتلتفت كل بضع خطوات.

بائع يقف أمام بضاعته دون أن ينادي أحدًا.

موظف يحمل ملفًا تحت إبطه، كأنه يحمل دليلًا على أنه ما زال موظفًا، رغم أن راتبه صار ذكرى بعيدة.

وفي الجهة الأخرى، كانت صنعاء التي يعرفها الناس من الصور.

الأبواب القديمة.

النوافذ المزخرفة.

البيوت التي تشبه حكايات الأجداد.

السماء التي يحب المصورون أن يضعوا خلفها العمارة الطينية.

والمدينة، في الصور، جميلة إلى حد يكاد يجعل المرء ينسى السؤال البسيط:

كيف يعيش أهل هذه البيوت؟

كانت خديجة تعرف الجواب، لكنها لم تكن تعرف بعد كيف تكتبه.

قال السائق وهو يحدق في الطريق:

ـــتغيّرت صنعاء.

ابتسمت خديجة.

ـــالمدن تتغير.

هز رأسه.

ـــلا. الناس هم الذين تغيروا.

ثم سكت.

كان صمته أثقل من الجملة.

في العمل، كانت خديجة قد تعلمت أن الصمت يمكن أن يكون جزءًا من الخبر. وأن ما لا يُقال أحيانًا أهم مما يُقال. لكن ذلك اليوم جعلها تكتشف شيئًا آخر: أن الصمت ليس دائمًا اختيارًا.

أحيانًا يكون خوفًا.

وأحيانًا يكون جوعًا.

وأحيانًا يكون حفاظًا على طفل نائم في الغرفة المجاورة.

دخلت مبنى القناة التي تعمل معها، فوجدت الممرات مضاءة أكثر مما ينبغي. كانت الإضاءة البيضاء تجعل الوجوه شاحبة، وتجعل كل شيء يبدو نظيفًا أكثر من اللازم.
في الاستوديو، كان أحد الزملاء يراجع نصًا أمام الكاميرا.
قرأ بصوت ثابت:
"تواصل الحياة في العاصمة بشكل طبيعي"...
رفعت خديجة رأسها.
توقفت يدها فوق الأوراق.
لم تسأل شيئًا.
فقط نظرت إلى الشاشة.
كانت تعرف أن الجملة صحيحة من جهة، وكاذبة من جهة أخرى.
فالحياة كانت تواصل سيرها فعلًا.
المخابز تفتح.
الحافلات تتحرك.
الطلاب يذهبون إلى المدارس.
والناس يتزوجون ويمرضون ويموتون.
لكن الحياة التي تظهر أمام الكاميرا ليست بالضرورة الحياة التي يعيشها الناس.
اقترب منها زميلها وقال:
ـــلماذا تنظرين هكذا؟
قالت:
ـــلا شيء.
ابتسم.
ـــفي هذه المهنة، "لا شيء" قد تكون أخطر إجابة.
نظرت إليه.
لم يبتسم هذه المرة.
كانت تعرفه جيدًا.
وكان يعرفها جيدًا.
ولهذا لم يحتج أي منهما إلى شرح.
في المساء، عادت خديجة إلى بيتها.
كانت أمها جالسة قرب النافذة.
قالت:
ـــتأخرتِ.
ـــكان عندنا عمل.
رفعت الأم عينيها.
ـــوهل العمل كثير هذه الأيام؟
عرفت خديجة أن السؤال ليس عن العمل.

كان عن كل شيء.
عن الأخبار.
عن الناس.
عن الكلام الذي يدور في الشوارع.
عن الأشياء التي لا ينبغي أن تصل إلى البيت.
وضعت خديجة حقيبتها.
ثم جلست.
قالت الأم:
ـــماذا يقول الناس؟
أجابت بعد لحظة:
ـــالناس يقولون أشياء كثيرة.
ـــوأنتِ؟
نظرت خديجة إلى يديها.
ـــأنا أسمع.
قالت الأم:
ـــلا يكفي أن تسمعي.
ثم سكتت.
كانت تعرف أن ابنتها درست الإعلام لكي تتكلم.
لكنها كانت تعرف أيضًا أن البلاد التي تخاف من الكلمات تستطيع أن تجعل الصحفي يتمنى لو أنه لم يتعلم الكلام أصلًا.
في تلك الليلة، فتحت خديجة دفترها القديم.
كان دفترًا صغيرًا احتفظت به منذ الجامعة.
على الصفحة الأولى كتبت، قبل سنوات:
"أريد أن أكون منيعة".
لا أكثر.
لم تكن تريد شهرة.
ولا نفوذًا.
ولا أن يعرفها الناس في الشوارع.
كانت تريد فقط أن تجلس أمام الكاميرا، وتقرأ الخبر بوضوح، ثم تعود إلى بيتها.
كان الحلم بسيطًا.
لكنها لم تكن قد فهمت بعد أن بعض البلاد تجعل الأحلام البسيطة أحلامًا سياسية دون أن تستأذن أصحابها.
أغلقت الدفتر.
وفي الخارج، مرّت سيارة ببطء.
توقفت للحظات.

ثم تحركت.
لم تعرف خديجة لماذا انتبهت إليها.
لكنها، منذ ذلك اليوم، بدأت تلاحظ السيارات التي تتوقف أمام البيوت.
وبدأت تلاحظ الوجوه التي تراقب أكثر مما تتحدث.
وبدأت تكتشف أن المدينة ليست فقط شوارع وبيوتًا وأسواقًا.
المدينة أيضًا ذاكرة.
والذاكرة، حين تخاف، تتحول إلى شيء يشبه السر.

الفصل الثاني: امرأة من بين الناس

ولدت خديجة في بيت لم يكن فقيرًا تمامًا، ولا غنيًا بما يكفي ليعرف معنى الأمان.
كان بيتًا من تلك البيوت التي لا يسأل أهلها في آخر الشهر: ماذا سنشتري؟
بل يسألون:
ماذا يمكننا أن نؤجل؟
في طفولتها، كانت تظن أن صنعاء تعرفها.
كانت تعرف الطريق إلى المدرسة، والدكان القريب، وصوت البائع الذي كان يبدأ يومه قبل الجميع.
كانت تعرف رائحة الخبز في الصباح، والغبار حين تهب الريح، والبرد الذي يتسلل إلى الغرف في ليالي الشتاء.
كبرت وهي تظن أن المدينة ملك لأهلها.
ثم كبرت أكثر، واكتشفت أن المدن، مثل البشر، قد يعيش فيها المرء سنوات طويلة دون أن يعرف حقيقتها.
في الجامعة، اختارت الإعلام.
سألها أستاذها ذات يوم:
ـــلماذا الإعلام؟
قالت:
ـــلأنني أحب أن أحكي للناس ما يحدث.
ابتسم الأستاذ.
ـــهذا جواب جميل.
ثم أضاف:
ـــلكنه ليس سهلًا.
لم تفهم قصده يومها.
كانت تظن أن الصعوبة في الوصول إلى الخبر.
لاحقًا، اكتشفت أن الصعوبة الحقيقية قد تكون في معرفة أي جزء من الحقيقة يستطيع أن يخرج من فمك دون أن يدفع أحد ثمنه.
كانت خديجة طالبة هادئة.

لم تكن الأكثر صخبًا.
ولا الأكثر جرأة.
لكنها كانت تملك شيئًا آخر: قدرة غريبة على ملاحظة التفاصيل.
كانت ترى الرجل الذي يضحك بينما يده ترتجف.
وتلاحظ المرأة التي تقول "أنا بخير" مرتين.
وتفهم أن الشخص الذي يتحدث كثيرًا قد يكون أقل اطمئنانًا من الذي يصمت.
حين بدأت عملها الإعلامي، شعرت في الأيام الأولى أنها وصلت أخيرًا إلى المكان الذي حلمت به.
الكاميرا أمامها.
الأضواء خلفها.
الورقة بين يديها.
الصوت في سماعة الأذن.
ثلاثة... اثنان... واحد...
ثم:
ـــمساء الخير.
كانت تحب تلك اللحظة.
لحظة الصمت التي تسبق الكلام.
كان العالم كله خارج الاستوديو، لكنها تستطيع أن تشعر أنه ينتظر.
ومع مرور الوقت، بدأت الأسئلة تتغير.
لم يعد السؤال:
"ما الخبر؟"
بل:
"هل يمكن بثه؟"
ثم:
"هل يمكن قوله بهذه الطريقة؟"
ثم:
"من ذكر هذا الاسم؟"
ثم:
"هل أنتِ متأكدة أنك تريدين فتح هذا الموضوع؟"
وكانت خديجة تتعلم شيئًا جديدًا كل يوم.
الإعلام ليس فقط فن الكلام.
أحيانًا هو فن معرفة أين تتوقف.
لكن المشكلة أن المرء إذا توقف كثيرًا، نسي أين بدأ.
وفي أحد الأيام، عادت من العمل متعبة.
وجدت أمها ترتب بعض الأوراق.

قالت:
ـــماذا تفعلين؟
ـــأحاول أن أجد فاتورة الكهرباء.
ضحكت خديجة.
ـــلماذا؟
قالت الأم:
ـــلأعرف إن كانت قد دُفعت.
سكتت خديجة.
ثم قالت:
ـــسأدفعها.
رفعت الأم رأسها.
ـــومن أين؟
لم تجد خديجة جوابًا سريعًا.
كان راتبها موجودًا على الورق، لكن الحياة لا تُشترى بالورق.
كان كل شيء أغلى.
وكانت الأشياء الصغيرة تتراكم.
دواء.
مواصلات.
طعام.
فاتورة.
رسوم دراسة.
حاجة مفاجئة.
ثم حاجة أخرى.
بدأت تفهم أن الفقر لا يدخل البيت مرة واحدة.
إنه يدخل على هيئة تفاصيل.

الفصل الثالث: حين دخل الخوف إلى البيت

لم يطرق الخوف الباب.
دخل كأنه فرد من العائلة.
جلس إلى المائدة.
استمع إلى الحديث.
عرف أسماء الأبناء.
وحفظ مواعيد خروجهم وعودتهم.
في البداية، كان الخوف متعلقًا بالأخبار.
ثم صار متعلقًا بالعمل.

ثم صار متعلقًا بالهاتف.
ثم أصبح متعلقًا حتى بطريقة إغلاق الباب.
كانت خديجة تتحدث مع صديقتها عبر الهاتف، ثم تقول فجأة:
ـــسنتحدث لاحقًا.
ليس لأنها انتهت من الكلام.
بل لأنها تذكرت أن الكلام نفسه قد يصبح مشكلة.
ذات مساء، سألتها أمها:
ـــلماذا أصبحتِ تخفضين صوتك؟
قالت:
ـــلم أفعل.
قالت الأم:
ـــبل فعلتِ.
ثم أضافت:
ـــمنذ متى؟
لم تعرف خديجة.
وهذا ما أخافها أكثر.
فالخوف الحقيقي لا يجعلك تعرف أنك خائف.
يجعلك تتغير دون أن تشعر.
صار البيت أكثر هدوءًا.
لم يعد الأب يسألها كثيرًا عن عملها.
ولم تعد هي تحكي كثيرًا.
حتى أخوها الأصغر، الذي كان يكثر من الأسئلة، تعلم أن بعض الأسئلة لا تُطرح.
وذات ليلة قال:
ـــهل يمكن أن أقول شيئًا؟
قالت خديجة:
ـــطبعًا.
قال:
ـــلا أريد أن تعملِي في التلفزيون.
نظرت إليه.
ـــلماذا؟
قال:
ـــلأن الناس ينظرون إليك.
ضحكت.
لكنها لم تستطع أن تقول له إن المشكلة ليست في أن الناس ينظرون.
المشكلة في أن بعض الناس لا يكتفون بالنظر.

الفصل الرابع: المواطن الذي فقد صوته

كان أول ما تفقده المدن المنهكة ليس المال.

بل القدرة على الشكوى.

فحين يعتاد الإنسان أن يقول:

"لا فائدة".

تبدأ الهزيمة الحقيقية.

في أحد الأيام، قابلت خديجة موظفًا حكوميًا أمام أحد المكاتب.

كان يحمل أوراقًا كثيرة.

قال لها:

ـــجئت أطالب براتبي.

سألته:

ـــمنذ متى؟

نظر حوله قبل أن يجيب.

ـــمنذ وقت طويل.

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

ـــلكن لا تكتبي اسمي.

قالت:

ـــلماذا؟

أجاب:

ـــلدي أطفال.

كانت الجملة بسيطة.

لكنها قالت كل شيء.

لم يكن الرجل يخاف على وظيفته فقط.

كان يخاف أن يصبح أولاده هم الذين يدفعون ثمن كلمة قالها والدهم.

في طريق عودتها، ظلت خديجة تفكر فيه.

كان الرجل قد جاء ليطلب حقًا.

ومع ذلك، كان يتصرف كأنه يطلب معروفًا.

تساءلت:

متى يتحول المواطن من صاحب حق إلى شخص يعتذر لأنه يطالب بحقه؟

لم تجد جوابًا.

وفي المساء، شاهدت طفلًا يبيع أشياء صغيرة في الشارع.

سألته:

ـــلماذا لا تكون في المدرسة؟

قال:

ـــأذهب أحيانًا.
ـــوأحيانًا؟
هز كتفيه.
ـــأعمل.
ثم ابتسم.
لم تكن ابتسامته ابتسامة طفل.
وهنا فهمت خديجة أن الجوع لا يظهر دائمًا في وجه عابس.
أحيانًا يظهر في وجه طفل يحاول أن يبدو قويًا.

الفصل الخامس: لقمة العيش

لم يكن أصعب ما في الحاجة أن الإنسان يجوع.
الأصعب أن الحاجة تستطيع أن تعيد ترتيب مبادئه.
أن تجعله يقبل ما كان يرفضه.
ويسكت عما كان يصرخ بسببه.
ويمد يده لمن كان يكره أن يطلب منه شيئًا.
كانت خديجة ترى ذلك في كل مكان.
رجل يبيع شيئًا من مقتنيات بيته.
امرأة تؤجل علاجها.
شاب يترك دراسته.
موظف يقبل عملًا إضافيًا بعد يوم عمل طويل.
وآخر يختار الصمت لأنه يحتاج راتبه.
لم يكن أحد منهم شريرًا.
ولم يكن أحد منهم بطلًا.
كانوا فقط يحاولون أن يعيشوا.
وهذه، في بعض المدن، قد تكون معركة كاملة.
ذات يوم قالت لها زميلة:
ـــهل تعتقدين أن الناس يختارون فعلًا؟
قالت خديجة:
ـــماذا تقصدين؟
قالت:
ـــعندما يكون أمام الإنسان الجوع والخوف، هل ما زال اختياره حرًا؟
لم تجب خديجة.
لأنها أدركت أن السؤال أكبر من الإعلام.
وأكبر من السياسة.
إنه سؤال عن الإنسان نفسه.

كم يبقى من إرادة الإنسان حين يصبح الخبز شرطًا للصمت؟
وكم تبقى من شجاعته حين يكون ثمن الحقيقة مستقبل أطفاله؟
لم تعرف.
لكنها بدأت تسجل.
لا للنشر.
بل كي لا تنسى.

الفصل السادس: الجوع ليس معدة فارغة

قالت لها امرأة في أحد الأحياء:
ـــالناس يظنون أن الجوع يعني ألا تجد طعامًا.
ثم سكتت.
كانت تحمل طفلًا صغيرًا.
قالت:
ـــالجوع أن ترى ابنك يريد شيئًا بسيطًا، ولا تستطيع أن تعطيه إياه.
خفضت عينيها.
ـــالجوع أن تؤجل الدواء حتى يصبح المرض أكبر.
ثم نظرت إلى خديجة مباشرة.
ـــالجوع أن تكذب على أولادك.
سألتها خديجة:
ـــكيف؟
قالت:
ـــتقول لهم إن الطعام سيأتي.
ثم ابتسمت ابتسامة مؤلمة.
ـــوأنت لا تعرف إن كان سيأتي أم لا.
كتبت خديجة الجملة في دفترها.
لكنها لم تكتب اسم المرأة.
لم تكن تريد أن تجعل من ألمها مادة.
كانت تريد أن تفهمه.
في بيت آخر، قابلت أمًا كانت تقسم الطعام بين أطفالها.
قالت:
ـــأنا لا آكل معهم.
سألتها خديجة:
ـــلماذا؟
أجابت:
ـــلأنهم إذا رأوني آكل، سيظنون أن الطعام كثير.

في تلك اللحظة، شعرت خديجة أن الجوع ليس معدة فارغة.
الجوع حساب.
الجوع خوف.
الجوع كذبة صغيرة تقولها الأم كي ينام أطفالها.
الجوع تنازل بعد تنازل.
حتى يأتي يوم لا يتذكر فيه الإنسان أين كان الخط الذي أقسم ألا يتجاوزه.
في طريق عودتها، كانت صنعاء تقترب من الغروب.
بدت المدينة جميلة من بعيد.
كعادتها.
البيوت القديمة تحت الضوء البرتقالي.
الجبال ساكنة.
الشوارع مزدحمة.
والناس يمضون في أعمالهم.
لو التقط أحدهم صورة للمدينة في تلك اللحظة، لربما قال:
"صنعاء ما زالت جميلة".
وكان سيصدق ما يرى.
لكن خديجة كانت تعرف الآن أن الصورة تستطيع أن تقول الحقيقة، ومع ذلك تخفي الحقيقة.
فتحت دفترها.
كتبت في الصفحة الأخيرة:
"هناك مدن لا تكذب في صورها.
لكنها لا تستطيع أن تقول كل ما تعرفه".
ثم أغلقت الدفتر.
رفعت رأسها نحو المدينة.
ولأول مرة، لم ترَ صنعاء كمدينة تخاف أن تتكلم.
رأت مدينة تخشى أن يتكلم أهلها باسمها.
وكان السؤال الذي لم تستطع الهرب منه قد بدأ يتشكل في داخلها:
ماذا يحدث حين يصبح قول الحقيقة خطرًا، ويصبح الصمت نوعًا آخر من الخطر؟
لم تكن تعرف أن الجواب سيأتيها قريبًا.
ولم تكن تعرف أن أول من سيطرق بابها لن يكون صحفيًا، ولا مسؤولًا، ولا رجلًا غريبًا.
سيكون شخصًا تعرفه جيدًا.
شخصًا سيطلب منها شيئًا بسيطًا.
شيئًا يبدو، في البداية، كأنه مجرد خدمة.
لكنها ستكتشف لاحقًا أن بعض الخدمات أبواب.
وأن بعض الأبواب، حين تُفتح، لا تعود الحياة بعدها كما كانت.

القسم الثاني: الباب الذي لا يُغلق

الفصل السابع: الرجل الذي جاء بعد المغرب

جاء بعد المغرب بقليل.

ثلاث طرقات على الباب.

لا أكثر.

كانت خديجة في المطبخ حين سمعتها.

توقفت.

لم تكن الطرقات قوية، لكنها كانت محسوبة، كأن صاحبها يعرف أن البيت يسمع أكثر مما ينبغي.

قالت الأم:

ـــمن؟

جاء الصوت من الخارج:

ـــأنا، يا خالة.

عرفته خديجة.

فتحت الباب.

كان سامي.

زميلها القديم في الجامعة، والرجل الذي اختفى من حياتها منذ سنوات ثم عاد فجأة، كما تعود الأشياء التي لم تنتهِ قصتها بعد.

نظر إليها مبتسمًا.

ـــما زلتِ كما أنتِ.

قالت:

ـــوأنت لم تتغير.

ضحك.

ـــتغيرنا كلنا.

دخل.

جلس.

شرب الشاي.

سأل عن الأم.

سأل عن العمل.

ثم وضع الكوب أمامه وقال:

ـــعندي طلب.

لم تجبه.

أخرج هاتفه.

فتح صورة.

كانت الصورة لرجل يجلس في مكتب صغير.

قال سامي:

ـــتعرفينه؟
نظرت.
عرفته.
كان الموظف الذي قابلته قبل أيام.
الرجل الذي طلب منها ألا تذكر اسمه.
قالت:
ـــنعم.
أغلق سامي الهاتف.
ـــلا تسألي كيف وصلت الصورة إليّ.
قالت:
ـــولماذا؟
نظر إليها طويلًا.
ـــلأنني أريد منك شيئًا واحدًا.
ـــماذا؟
ـــانسَي الرجل.
ساد الصمت.
قالت خديجة:
ـــأنا لم أنشر شيئًا.
ـــأعرف.
ـــإذًا؟
اقترب قليلًا.
ـــالمشكلة ليست فيما نشرتِه.
ثم ابتسم.
ـــالمشكلة فيما تعرفينه.
كانت الجملة صغيرة.
لكنها بقيت في الغرفة بعد أن انتهى من الكلام.
قالت خديجة:
ـــهل تهددني؟
هز رأسه.
ـــأنا أحذرك.
ـــمن ماذا؟
وقف.
ـــمن أن تعرفي أكثر مما تستطيعين تحمله.
ثم خرج.
وبقيت خديجة واقفة عند الباب.

قالت أمها من الداخل:

ـــمن كان؟

أغلقت خديجة الباب.

ـــشخص من الماضي.

قالت الأم:

ـــالماضي لا يأتي ليلًا إلا إذا كان يحمل معه مشكلة.

لأول مرة، لم تضحك خديجة.

الفصل الثامن: الملف الأزرق

في صباح اليوم التالي، وجدت خديجة ملفًا أزرق على مكتبها.

لا اسم.

لا رسالة.

لا تفسير.

فتحته.

في داخله ثلاث أوراق.

الأولى: كشف بأسماء موظفين.

الثانية: أرقام.

الثالثة: قائمة تحويلات مالية.

ظلت تحدق فيها.

لم تكن خبيرة في الحسابات، لكنها فهمت ما يكفي.

الأرقام لم تكن رواتب.

كانت شيئًا آخر.

شيئًا لا تريد أن تعرفه.

رفعت رأسها.

وجدت مدير التحرير واقفًا عند الباب.

قال:

ـــوجدته؟

أغلقت الملف.

ـــنعم.

ـــلا تفتحيه مرة أخرى.

قالتها بهدوء:

ـــلماذا وضعته على مكتبي إذًا؟

لم يجب.

استدار ليغادر.

قالت:

ـــمن أرسله؟
توقف.
ثم قال:
ـــأحيانًا يا خديجة، أفضل طريقة لحماية نفسك هي ألا تعرفي من أرسل الشيء.
وغادر.
كانت تلك أول مرة تفهم فيها أن الملف لم يكن معلومة.
كان اختبارًا.
السؤال لم يكن:
هل ستكتشف الحقيقة؟
بل:
ماذا ستفعلين عندما تكتشفينها؟
وضعت الملف في حقيبتها.
ولم تعرف لماذا فعلت ذلك.
ربما الفضول.
ربما الخوف.
وربما لأن الصحفي، حين يرى بابًا مغلقًا، يبدأ في التفكير فيما يوجد خلفه.

الفصل التاسع: الصوت في الهاتف

في منتصف الليل رن هاتفها.
رقم مجهول.
ترددت.
ثم أجابت.
لم يتكلم أحد.
قالت:
ـــألو؟
صمت.
ثم جاء صوت رجل:
ـــهل الملف معك؟
تجمدت.
ـــأي ملف؟
ضحك الرجل.
ـــلا تفعلي هذا.
قالت:
ـــمن أنت؟
ـــشخص يريد لك الخير.

ـــالناس الذين يريدون الخير لا يتصلون في منتصف الليل.
صمت الرجل لحظة.
ثم قال:
ـــاسمعيني جيدًا.
بدأ قلبها يخفق.
ـــهناك أسماء في الملف لا ينبغي أن تظهر.
ـــومن قال إنني سأظهرها؟
ـــأنتِ لا تعرفين ما لديك.
قالت:
ـــإذًا أخبرني.
جاء صمت طويل.
ثم:
ـــالمشكلة أن هناك أسماءً لأشخاص لا علاقة لهم بشيء.
توقفت.
ـــماذا تقصد؟
ـــأقصد أن بعض الناس يُستخدمون كغطاء.
ثم انقطع الاتصال.
بقي الهاتف في يدها.
كانت الجملة الأخيرة تدور في رأسها:
بعض الناس يُستخدمون كغطاء.
فتحت الملف.
بدأت تقرأ الأسماء من جديد.
وفي منتصف القائمة وجدت اسمًا جعل يدها ترتجف.
اسم أبيها.

الفصل العاشر: الاسم الذي لا يجب أن يكون هناك
في الصباح، لم تخبر أمها.
ولا أخاها.
ولا أي شخص.
جلست أمام الملف ساعة كاملة.
كانت تحدق في الاسم كأنها تنتظر أن يختفي.
لكن الاسم لم يختفِ.
كان واضحًا.
ثلاثة مقاطع.
اسم أبيها.

وتحته رقم.
ثم تاريخ.
ثم مبلغ.
لم تفهم.
أبوها لم يكن رجل أعمال.
لم يكن مسؤولًا.
لم يكن يملك شركة.
كان موظفًا عاديًا.
كيف ظهر اسمه هنا؟
اتصلت به.
قال:
ـــصباح الخير.
لم تستطع أن تقول صباح الخير.
سأل:
ـــماذا بك؟
قالت:
ـــهل كنت تعرف سامي؟
صمت.
كان الصمت أقصر من أن يكون بريئًا.
قال:
ـــلماذا تسألين؟
ـــأجبني.
تنفس ببطء.
ـــأعرفه منذ سنوات.
ـــوهل كنت تعمل معه؟
صمت.
ثم قال:
ـــخديجة، من أين جاءت هذه الأسئلة؟
قالت:
ـــأريد الحقيقة.
فجاءها صوته مختلفًا:
ـــالحقيقة ليست دائمًا الشيء الذي يحميك.
أغلقت الهاتف.
لم تكن تخاف من الملف بعد الآن.
كانت تخاف من أبيها.

الفصل الحادي عشر: المدينة التي تهمس

بدأت خديجة تبحث.

لكنها لم تكن تبحث كصحفية هذه المرة.

كانت تبحث كابنة.

وهذا جعل الأمر أخطر.

ذهبت إلى الأماكن التي عمل فيها والدها.

سألت أشخاصًا يعرفونه.

كانت الإجابات متناقضة.

واحد قال:

ـــأبوك رجل طيب.

آخر قال:

ـــلا تدخلي في هذا الموضوع.

وثالث لم يجب أصلًا.

ثم وجدت رجلًا عجوزًا كان يعمل معه.

قال لها:

ـــأبوك لم يكن يملك خيارًا.

توقفت.

ـــماذا تقصد؟

قال:

ـــاسأليه.

ـــسألته.

ـــإذًا اسأليه مرة أخرى.

ـــلماذا؟

نظر إلى الشارع.

ثم قال:

ـــلأن هناك فرقًا بين الرجل الذي يفعل شيئًا لأنه يريده، والرجل الذي يفعله لأنه يخاف مما سيحدث إذا رفض.

كانت الجملة كافية لتغير نظرتها إلى أشياء كثيرة.

ربما لم يكن والدها جزءًا من الحكاية التي تبحث عنها.

ربما كان ضحية لها.

وربما كان الاثنين معًا.

وفي مدينة مثل صنعاء، اكتشفت خديجة، يمكن للإنسان أن يكون ضحية ومتَّهَمًا في الوقت نفسه.

الفصل الثاني عشر: الصفقة

عاد سامي.
لكن هذه المرة لم يأتِ إلى البيت.
اتصل بها.
ـــنحتاج أن نتكلم.
قالت:
ـــأنا لا أحتاج.
ـــأنتِ تحتاجين أكثر مما تظنين.
ـــهل تعرف أن اسم أبي موجود في الملف؟
صمت.
وهنا عرفت.
عرفت من الصمت.
قال:
ـــأين الملف؟
ـــلماذا؟
ـــلأن وجوده معك أصبح خطرًا.
ـــعلى من؟
قال:
ـــعليكِ.
ضحكت بمرارة.
ـــكلما تحدثت معي قلت إنك تحميني.
ـــلأنني أحاول ذلك.
ـــممن؟
لم يجب.
قالت:
ـــأعطني سببًا واحدًا لأصدقك.
قال:
ـــوالدك.
صمتت.
ـــماذا عنه؟
قال:
ـــوالدك وقّع على شيء منذ سنوات.
ـــماذا وقّع؟
ـــلا أعرف.
ـــكاذب.
ـــأعرف أنه وقّع.

ـــولماذا؟
قال:
ـــلأنه كان يريد أن يحميك.
توقفت أنفاسها لحظة.
ـــيحميني من ماذا؟
لكن سامي لم يجب.
انقطع الاتصال.
وفي اللحظة نفسها وصلتها رسالة قصيرة من رقم مجهول:
"لا تبحثي عن الحقيقة في الملفات. ابحثي عمّن يخاف منها".
حدقت خديجة في الشاشة.
ثم رفعت عينيها إلى النافذة.
كانت صنعاء في الخارج تمضي كأن شيئًا لم يحدث.
سيارات.
باعة.
أطفال.
رجال.
نساء.
أصوات.
وضجيج.
مدينة كاملة تعيش يومها.
لكن خديجة كانت تعرف الآن أن تحت هذا اليوم العادي شيئًا آخر يتحرك.
شيئًا لا يظهر في الكاميرا.
شيئًا بدأ يقترب منها.
وفي تلك اللحظة، أدركت أن القضية لم تعد قصة صحفية.
لقد أصبحت قصة عائلتها.
وربما كانت قد بدأت قبل ولادتها بسنوات.

الفصل الثالث عشر: الصورة
في الليلة نفسها، وصلتها صورة.
لم تكن ورقة.
ولا ملفًا.
كانت صورة قديمة.
والدها يقف أمام مبنى حكومي.
إلى جواره ثلاثة رجال.
أحدهم كان سامي.

أما الرجل الثالث، فقد عرفته خديجة بعد لحظات.
كان وجهًا مألوفًا من شاشات التلفزيون.
رجلًا يظهر في الأخبار كل فترة.
رجلًا لم تتخيل يومًا أن يكون له علاقة بأبيها.
قلبت الصورة.
كان خلفها تاريخ فقط.
ثم جملة مكتوبة بخط اليد:
"في هذا اليوم بدأت الحكاية".
جلست خديجة على طرف السرير.
لم تعد تعرف أي شيء.
ولا من تثق به.
ولا من يخاف عليها.
ولا من يخاف منها.
لكنها عرفت شيئًا واحدًا:
الحقيقة لم تعد خلف باب.
لقد دخلت البيت.
وأغلقت الباب وراءها.
وفي الخارج، كانت المدينة تستعد لليوم التالي.
أما خديجة، فلم تنم.
كانت تعرف أن الصباح القادم لن يكون مثل أي صباح قبله.
لأنها للمرة الأولى لم تكن تسأل:
ماذا يحدث في صنعاء؟
بل:
ماذا حدث لأبي؟
وكان هذا السؤال، دون أن تعرف، هو أول خيط في الجريمة كلها.

القسم الثالث: ما تركه الآباء خلفهم

الفصل الرابع عشر: الرجل الذي لم يكن أبي

في الصباح، لم تسأل خديجة والدها عن الصورة.

كانت تعرف أن بعض الأسئلة إذا طُرحت مباشرة، ماتت الإجابة قبل أن تولد.

جلست معه إلى مائدة الإفطار.

كان يأكل ببطء.

الخبز أمامه.

الشاي إلى جواره.

والصمت بينهما.

راقبته طويلًا.

كان أبوها يبدو كما عرفته دائمًا: هادئًا، قليل الكلام، لا يحب المشاكل، ويغضب فقط حين يشعر أن أحدًا ظلم أحد أبنائه.

لكنها الآن كانت ترى وجهًا آخر.

ليس وجه رجل غامض.

بل وجه رجل يحمل سرًا منذ سنوات.

قال:

ـــ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

ابتسمت.

ـــ أتأملك.

ـــ وهل وجدتِ شيئًا؟

قالت:

ـــ لم أقرر بعد.

رفع فنجانه.

ثم قال:

ـــ خديجة...

توقفت.

ـــ نعم؟

ـــ مهما سمعتِ عني، تذكري شيئًا واحدًا.

ـــ ماذا؟

قال:

ـــ لم أفعل شيئًا أؤذي به أحدًا.

كانت الجملة دقيقة أكثر مما ينبغي.

قالت:

ـــ وأنا لم أسألك عما إذا كنت تؤذي أحدًا.

رفع عينيه إليها.

فهم.
لكن لم يقل شيئًا.
وفي تلك اللحظة عرفت خديجة أن أباها لم يكن الرجل الذي ظنته طوال حياتها.
لم يكن كاذبًا.
لكن الصادق قد يخفي شيئًا أيضًا.

الفصل الخامس عشر: أول الكذبات

كانت خديجة قد تعلمت في الجامعة أن التحقيق يبدأ من التناقض.
والتناقض الأول كان بسيطًا.
التاريخ الموجود خلف الصورة يعود إلى عام كانت فيه خديجة طفلة.
لكن والدها قال لها ذات مرة إنه لم يدخل ذلك المبنى قط.
كانت تتذكر الجملة.
قالها قبل سنوات، حين سألت عن المكان الذي يعمل فيه أحد أقاربه.
"ذلك المبنى؟ لم أدخله في حياتي".
والآن كانت الصورة تقول العكس.
جلست أمام جهازها.
بحثت عن اسم والدها في سجلات قديمة.
لم تجد شيئًا.
بحثت عن اسم الرجل الذي ظهر في الصورة.
وجدت عشرات الأخبار.
خطابات.
تصريحات.
مقابلات.
ثم وجدت خبرًا صغيرًا منسيًا.
اجتماع رسمي قديم.
الصورة نفسها تقريبًا.
لكن والدها لم يظهر في النسخة المنشورة.
حدقت خديجة في الشاشة.
كبرت الصورة.
كان الرجل الثالث موجودًا.
وسامي موجود.
أما أبوها، فقد اختفى.
كأن أحدهم قصّه من الصورة.
همست:
ـــلماذا؟

ثم أدركت شيئًا آخر.
الصورة التي وصلتها لم تكن نسخة من الإنترنت.
كانت صورة أصلية.
أحدهم كان يحتفظ بها طوال هذه السنوات.
وهذا يعني أن الشخص الذي أرسلها لم يبحث عنها.
كان يملكها.

الفصل السادس عشر: الدرج الثالث
عندما عادت إلى البيت، كان والدها نائمًا.
دخلت غرفته.
لم تكن تريد التفتيش.
أقنعت نفسها أنها تبحث فقط عن إجابة.
ثم رأت خزانته.
كان هناك درج لا يستخدمه عادة.
فتحته.
ملابس قديمة.
أوراق.
فاتورة.
ثم ظرف بني.
فتحته.
لم تجد مالًا.
وجدت ورقة واحدة.
كانت مكتوبة بخط يد أبيها.
"إذا حدث لي شيء، لا تثقوا في الرواية الرسمية".
توقفت.
قرأت الجملة مرة ثانية.
ثم ثالثة.
لم يكن هناك اسم.
ولا تاريخ.
ولا تفسير.
فقط الجملة.
وفي أسفل الصفحة كلمة واحدة:
سامي.
سمعت صوتًا خلفها.
أغلقت الورقة بسرعة.

كان أبوها واقفًا عند الباب.
لم يغضب.
وهذا أخافها أكثر.
قال:
ـــوجدته إذًا.
لم تعرف ماذا تقول.
سألته:
ـــماذا كنت تخفي؟
قال:
ـــشيئًا كنت أتمنى ألا تعرفيه.
ـــلماذا؟
ـــلأنك كنتِ بخير قبل أن تعرفي.
ـــوهل أنا بخير الآن؟
خفض رأسه.
ـــلا.
كانت أول مرة يقولها بصراحة.
اقترب منها.
قال:
ـــاسمعيني جيدًا. لا تذهبي إلى سامي.
ـــلماذا؟
ـــلأنه ليس الشخص الذي تظنينه.
ـــومن يكون؟
نظر إليها.
ثم قال:
ـــرجل عاش عمره كله وهو يظن أن النجاة أهم من الحقيقة.
قالت:
ـــوأنت؟
سكت.
ـــوأنت ماذا فعلت؟
أجاب بعد لحظة:
ـــنجوت.

الفصل السابع عشر: القصة التي لم تُروَ

جلسا في غرفة الجلوس.
أغلق الأب الباب.

لم يكن في صوته خوف هذه المرة.
كان هناك تعب.
قال:
ـــقبل سنوات، كنت أعمل في مكان لم يكن مهمًا في نظرك.
ـــلكنك كنت تعرف رجالًا مهمين.
ـــالمعرفة لا تعني القوة.
ثم ابتسم بمرارة.
ـــأحيانًا تكون المعرفة هي أول مصيبة.
بدأ يحكي.
عن اجتماع.
عن أوراق.
عن أموال لم تكن له.
عن أسماء كانت تظهر وتختفي.
عن موظفين طُلب منهم توقيع مستندات لم يفهموا حقيقتها.
قالت خديجة:
ـــولماذا وقعت؟
قال:
ـــلأنني كنت أعتقد أن التوقيع مجرد إجراء.
ـــثم؟
ـــثم فهمت.
ـــماذا فهمت؟
نظر إليها.
ـــأن الورقة يمكن أن تكون أقوى من الرصاصة.
سكتت.
قال:
ـــحاولت الانسحاب.
ـــماذا حدث؟
ـــقيل لي إن الأمر انتهى.
ـــوهل انتهى؟
ضحك.
ضحكة قصيرة.
ـــلو انتهى، لما كنتِ تبحثين عنه الآن.
سألته:
ـــوما علاقة سامي؟
قال:

ـــسامي كان أصغر مني سنًا.
ـــوكان يعمل معك؟
ـــكان يعرف أكثر مما ينبغي.
ـــهل خانك؟
نظر إلى الأرض.
ـــلا أعرف.
ـــهل تثق به؟
رفع عينيه إليها.
ـــلا أثق بمن اضطرته الحياة إلى الاختيار بين الحقيقة والنجاة.
ثم أضاف:
ـــلأنني كنت واحدًا منهم.

الفصل الثامن عشر: الرسالة الثانية

في تلك الليلة، وصلتها رسالة.
لم يكن فيها تهديد.
وهذا جعلها أخطر.
"إذا أردتِ أن تعرفي لماذا وقّع والدك، اذهبي إلى المكان الذي بدأت فيه القصة".
ثم عنوان.
كان مبنى قديمًا.
بعيدًا عن مكان عملها.
مكانًا لم تسمع باسمه منذ سنوات.
ذهبت في الصباح.
كانت تعرف أن الذهاب قد يكون خطأ.
لكنها تعلمت أن بعض الأخطاء تبدأ كأنها فضول.
وقفت أمام المبنى.
باب حديدي.
جدران متآكلة.
حارس عجوز.
سألها:
ـــمن تريدين؟
قالت:
ـــأبحث عن شخص كان يعمل هنا.
ـــمن؟
ذكرت الاسم.
تغير وجه الرجل.

قال:
ـــمات.
ـــمتى؟
ـــمنذ ثلاث سنوات.
ـــهل كان له مكتب هنا؟
نظر إليها طويلًا.
ثم قال:
ـــلماذا تسألين؟
أخرجت الصورة.
لم ينظر إليها إلا ثانية واحدة.
ثم قال:
ـــادخلي.
كانت الغرفة في الطابق الثاني.
فارغة تقريبًا.
طاولة.
كرسي.
خزانة.
وغبار.
فتح الحارس الخزانة.
قال:
ـــتركها كما هي.
سألت:
ـــلماذا لم يفرغوها؟
أجاب:
ـــلأن أحدًا لم يجرؤ.
وجدت داخلها دفترًا.
أسود.
قديم.
فتحت الصفحة الأولى.
كان هناك تاريخ.
ثم أسماء.
ثم ملاحظات قصيرة.
قرأت الصفحة الثانية.
ثم الثالثة.
ثم توقفت.

كان اسم أبيها هناك.
لكن بجواره كلمة واحدة:
"رفض".
قلبت الصفحة.
اسم آخر.
"وافق".
ثم اسم ثالث.
"اختفى".
تسارعت أنفاسها.
بدأت تفهم.
لم يكن والدها الرجل الذي وافق.
كان الرجل الذي رفض.
لكن لماذا كان اسمه في الملف المالي؟
ومن الذي اختفى؟

الفصل التاسع عشر: الرجل المفقود

سألت الحارس:
ـــمن كتب هذا الدفتر؟
قال:
ـــالرجل الذي كان هنا.
ـــما اسمه؟
ذكر الاسم.
سجلته في هاتفها.
ثم سألته:
ـــكيف مات؟
نظر إليها.
ـــقالوا مرض.
ـــوقالت عائلته؟
صمت.
ـــالعائلة لم تقل شيئًا.
ـــلماذا؟
اقترب منها.
وقال بصوت منخفض:
ـــلأنهم أرادوا أن يبقوا أحياء.
شعرت خديجة ببرودة في أطرافها.

كانت هذه العبارة تتكرر.
كل من اقترب من الحقيقة كان يريد النجاة.
كل من عرف شيئًا صمت.
كل من تكلم، دفع ثمنًا.
لكنها لم تكن قد فهمت بعد أن هناك فرقًا بين أن تعرف الحقيقة وأن تستطيع إثباتها.
أخذت الدفتر.
وقبل أن تغادر، قال الحارس:
ـــانتظري.
التفتت.
أخرج شيئًا من جيبه.
مفتاحًا صغيرًا.
قال:
ـــهذا تركه لي قبل موته.
ـــلماذا؟
ـــقال: إذا جاءت ابنته، أعطها المفتاح.
تجمدت.
ـــابنة من؟
قال اسم الرجل.
لم يكن أبوها.
كان صاحب الدفتر.
سألت:
ـــلماذا قال ابنة؟
ابتسم الرجل.
ـــلأنه كان يعرف أنك ستأتين.
خرجت خديجة من المبنى وهي تحمل المفتاح.
وللمرة الأولى، شعرت أن شخصًا ميتًا كان يترك لها طريقًا.

الفصل العشرون: الغرفة التي لا يعرفها أحد

قادها المفتاح إلى مكان لم تتوقعه.
مستودع صغير في طرف المدينة.
كان الباب صدئًا.
فتحته.
رائحة الورق القديم ضربت وجهها.
أشعلت ضوء هاتفها.
صناديق.

ملفات.
أشرطة تسجيل.
صور.
وفي الزاوية جهاز تسجيل قديم.
وجدت شريطًا واحدًا عليه تاريخ.
التاريخ نفسه الموجود خلف الصورة.
أدخلته.
ضغطت زر التشغيل.
في البداية، لم تسمع إلا تشويشًا.
ثم صوت رجل.
صوتًا متعبًا.
قال:
ـــإذا كنت تسمع هذا، فمعنى ذلك أنني لم أستطع إكمال ما بدأت.
توقفت خديجة عن التنفس.
تابع الصوت:
ـــلا تبحث عن الشخص الذي أخذ المال.
تجمدت.
ـــابحث عن الشخص الذي جعل الناس يظنون أن المال هو القضية.
ثم صمت.
صوت ورق.
ثم جملة أخيرة:
ـــلأن المال لم يكن إلا الغطاء.
انتهى التسجيل.
جلست خديجة على الأرض.
لم تعد القضية راتبًا.
ولا ملفًا.
ولا توقيعًا قديمًا.
كان هناك شيء أكبر.
شيء استخدم المال ليخفي شيئًا آخر.
لكن ماذا؟
وبينما كانت تحاول استيعاب ما سمعت، أضاء هاتفها.
رسالة جديدة.
هذه المرة من أبيها.
"لا تعودي إلى البيت".
قرأت الرسالة مرتين.

ثم جاءتها رسالة ثانية.
من رقم مجهول:
"لقد عرفوا أنك وجدتِ التسجيل".
رفعت رأسها.
في الخارج، سُمعت خطوات.
ثم ثلاث طرقات على الباب.
نفس الطرقات التي سمعتها قبل أيام.
ثلاث.
لا أكثر.
وضعت الهاتف في جيبها.
أطفأت الضوء.
وتراجعت إلى آخر الغرفة.
ثم جاء الصوت من خلف الباب:
ـــخديجة؟
كان صوت أبيها.
لكنها كانت تعرف أن أباها لم يكن في الخارج.
لأنها، قبل دقائق فقط، كانت قد تلقت منه رسالة يقول فيها:
لا تعودي إلى البيت.
ولأول مرة منذ بدأت الحكاية، فهمت خديجة أن الخطر لم يعد يبحث عنها.
الخطر كان ينتظرها.
وكان يعرف صوت أبيها.

القسم الرابع: حين بدأت المدينة تستعيد صوتها

الفصل الأول: ما يبقى بعد الخوف

لم يكن الخوف يرحل حين يفتح الإنسان نافذته في الصباح.

كان يجلس على حافة النافذة، هادئًا، كأنه واحد من أثاث البيت. لا يراه أحد، لكنه كان حاضرًا في كل شيء: في طريقة إغلاق الباب، وفي نبرة الصوت، وفي الجملة التي يبدأها المرء ثم يبتلع نصفها.

أما خديجة، فقد تعلمت شيئًا لم تتعلمه في كلية الإعلام.

تعلمت أن الحقيقة لا تبدأ حين تُقال.

الحقيقة تبدأ قبل ذلك بكثير؛ حين يعرف الإنسان أنه يستطيع أن يقولها، ولا يفعل.

في صباح بارد، جلست أمام المرآة تمشط شعرها، ثم توقفت فجأة.

نظرت إلى وجهها طويلًا.

كان الوجه نفسه الذي اعتادت أن تراه في شاشة الهاتف، حين كانت تتخيل نفسها مذيعةً تقرأ الأخبار بصوت ثابت، دون أن ترتجف عيناها أمام الكاميرا.

ابتسمت.

ثم قالت لنفسها:

ـــوما الفرق؟

لم تعرف هل كانت تسأل عن الفرق بين المذيعة والمواطنة، أم بين المرأة التي كانتها والمرأة التي أصبحتها.

رن الهاتف.

نظرت إلى الشاشة.

رقم مجهول.

تركت الهاتف يرن.

ثم توقف.

بعد دقيقة عاد يرن.

هذه المرة أجابت.

جاءها صوت رجل لم تعرفه.

قال:

ـــهل ما زلتِ تكتبين؟

صمتت.

قال مرة أخرى:

ـــسألتك سؤالًا بسيطًا.

أغلقت الخط.

لم تبكِ.

وهذا ما أخافها.

كانت قد اعتادت أن تخاف حتى صار الخوف نفسه شيئًا عاديًا.

لكنها في تلك اللحظة أدركت أن شيئًا آخر بدأ يتكون داخلها.
شيء لا يشبه الشجاعة تمامًا.
بل يشبه **الرفض**.
والرفض، في بعض المدن، هو أول أشكال الشجاعة.

الفصل الثاني: دفتر صغير
بدأت خديجة تكتب.
ليس للنشر.
ولا للصحيفة.
ولا لتقرأه أمام كاميرا.
كانت تكتب في دفتر أزرق صغير، اشترته من بائع متجول قرب باب اليمن.
على الصفحة الأولى كتبت:
"لا أثق بذاكرتي حين يخاف الناس، ولذلك سأكتب".
ثم بدأت تسجل.
موظف لم يتقاضَ راتبه منذ أشهر.
أم تبيع ما تبقى من أثاث بيتها.
طفل يعرف سعر الخبز أكثر مما يعرف أسماء ألعابه.
رجل كان يملك محلًا، ثم أصبح المحل يملكه.
امرأة قالت لها:
—لا أريد منكِ شيئًا. فقط اكتبي أننا كنا هنا.
توقفت خديجة عند هذه الجملة طويلًا.
كنا هنا.
كم تبدو بسيطة.
وكم تخفي وراءها من خراب.
فالمدن لا تموت فقط حين تُهدم بيوتها.
تموت أيضًا حين يختفي منها الناس واحدًا بعد آخر، ويصبح الغياب أكثر شيوعًا من الحضور.
أغلقت الدفتر.
ثم كتبَت تحت الجملة:
"أخشى أن يأتي يوم نحتاج فيه إلى دليل على أننا كنا أحياء".

الفصل الثالث: الرجل الذي لم يكن يريد أن يتكلم
كان اسمه سالم.
موظفًا حكوميًا قبل أن يصبح الراتب حكاية قديمة.
استقبل خديجة في غرفة صغيرة، لا تكاد تتسع لثلاثة أشخاص.
على الجدار صورة عائلية قديمة.

كان سالم يحدق فيها كلما سألته عن شيء.
قالت:
ـــمتى بدأت المشكلة بالنسبة لك؟
ضحك.
لم يكن في ضحكته شيء من الفرح.
قال:
ـــأي مشكلة؟
أجابت:
ـــالراتب.
سكت.
ثم قال:
ـــالراتب لم ينقطع في يوم واحد. نحن الذين انقطعنا عنه بالتدريج.
نظرت إليه.
أضاف:
ـــفي البداية قلت لنفسي: شهر وسيمر. ثم شهران. ثم بدأت أبيع الأشياء. ثم استدنت. ثم صرت أخجل من الذين يطالبونني بما عليّ. وبعدها اكتشفت أن الإنسان يستطيع أن يعيش بلا مال فترة أطول مما يستطيع أن يعيش بلا كرامة.
سألته:
ـــوهل اشتكيت؟
رفع عينيه إليها.
هذه المرة لم يضحك.
قال:
ـــلمن؟
كان السؤال بسيطًا.
لكنه وقع في الغرفة كحجر.
لم تجد خديجة جوابًا.
فأخرج سالم من درج مكتبه ورقة مطوية.
فتحها.
كانت قائمة بأسماء.
قال:
ـــهؤلاء كانوا معي في العمل.
سألته:
ـــماذا بهم؟
قال:
ـــبعضهم رحل. بعضهم مات. بعضهم غادر المدينة. وبعضهم بقي.

ثم نظر إلى القائمة.
وأضاف:
ـــأخاف أن يكون البقاء أحيانًا هو أصعب الخيارات.

الفصل الرابع: المدينة التي بدأت تتذكر

كانت صنعاء في المساء تبدو مختلفة.
الأضواء القليلة تجعل الأزقة أكثر غموضًا، والبيوت القديمة تبدو كأنها تستعيد شيئًا من هيبتها.
كانت خديجة تمشي وحدها.
لم تكن تبحث عن قصة.
كانت القصص تأتي إليها.
عند دكان صغير، سمعت امرأة تقول:
ـــلم يعد أولادي يسألونني متى سنعيش مثل الناس.
سألتها خديجة:
ـــوماذا يسألون؟
قالت:
ـــيسألونني: هل سيأتي الغد؟
كتبت الجملة.
ثم توقفت.
لأول مرة شعرت أن القلم يمكن أن يكون عبئًا.
فالكلمات التي تجمعها لم تعد مجرد مادة صحفية.
كانت وجوهًا.
وكان لكل وجه بيت.
ولكل بيت باب.
وخلف كل باب حكاية لا يريد أصحابها أن تتحول إلى خبر عابر.
وعندما عادت إلى منزلها، فتحت الدفتر.
وجدت الصفحات ممتلئة.
لكنها لم تشعر أنها كتبت شيئًا.
قالت لأمها:
ـــأحيانًا أشعر أنني لا أستطيع أن أساعد أحدًا.
أجابتها أمها وهي تعد الشاي:
ـــليس مطلوبًا منك أن تنقذي الناس كلهم.
ثم وضعت الكوب أمامها.
وقالت:
ـــأحيانًا يكفي أن تمنعي قصتهم من أن تموت.
نظرت خديجة إلى أمها.

ولم تجب.
لكنها في تلك الليلة اتخذت قرارًا.

الفصل الخامس: الكاميرا

بعد أيام، وضعت خديجة هاتفها على الطاولة.
فتحت الكاميرا.
جلست أمامها.
لم تضع مكياجًا.
لم تختَر خلفية جميلة.
لم تبحث عن موسيقى.
فقط جلست.
وقالت:
ـــأنا خديجة.
توقفت.
حذفت التسجيل.
أعادت المحاولة.
ـــأنا خديجة، وهذه ليست نشرة أخبار.
توقفت مرة أخرى.
ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة.
ـــلأن الأخبار التي أريد أن أحكيها لا تظهر في نشرات الأخبار.
واصلت.
حكت عن الموظف.
عن الأم.
عن الطفل.
عن الرجل الذي لم يعد يعرف لمن يشتكي.
لم تذكر أسماء.
لم تتهم أحدًا.
لم تصرخ.
فقط قالت ما رأته.
وحين انتهت، ظلت تحدق في الشاشة.
كان إصبعها فوق زر الإرسال.
ثوانٍ قليلة.
ثم ضغطت.
انتشر التسجيل.
لم يحدث شيء في الدقائق الأولى.

ثم بدأت التعليقات.
واحد كتب:
"أخيرًا أحد قالها".
ثم آخر:
"هذه مدينتنا".
ثم ثالث:
"كنت أظن أنني وحدي".
ثم توقفت خديجة عن القراءة.
لأن الجملة الأخيرة أخافتها أكثر من كل شيء.
كنت أظن أنني وحدي.
فهمت عندها أن أخطر ما يفعله الخوف بالناس ليس أن يمنعهم من الكلام.
بل أن يقنع كل واحد منهم بأنه وحده.

الفصل السادس: حين صار للصمت شهود
في اليوم التالي، خرجت خديجة إلى الشارع.
لم تكن تعرف ماذا ينتظرها.
لكنها لاحظت شيئًا غريبًا.
امرأة كانت تبيع الخبز قالت لها:
ـــأنتِ التي ظهرت في الفيديو؟
أومأت خديجة.
قالت المرأة:
ـــقولي لهم إننا لسنا أرقامًا.
ثم عادت إلى عملها.
رجل مسن اقترب منها وقال:
ـــلا تخافي.
ابتسمت.
قال:
ـــأنا لا أقول لكِ ذلك لأنني شجاع.
ثم أضاف:
ـــأقولها لأنني خائف مثلك.
مضى.
وقفت خديجة مكانها.
كانت تلك الجملة أغرب ما سمعته منذ بدأت الكتابة.
لأنها فهمت أن الشجاعة ليست غياب الخوف.
الشجاعة أن تعرف أن الخوف موجود، ثم تختار ألا تجعله يتكلم نيابةً عنك.

وفي ذلك اليوم، لم تتغير صنعاء.
لم تسقط الجدران.
لم تنتهِ الأزمات.
لم تعد الرواتب.
لم تختفِ المخاوف.
لكن شيئًا صغيرًا حدث.
شيء لا تلتقطه الكاميرات بسهولة.
بدأ الناس ينظرون إلى بعضهم بعضًا، وكأنهم اكتشفوا فجأة أنهم كانوا جميعًا يعيشون الحكاية نفسها، كلٌّ منهم خلف باب مختلف.
وهكذا، للمرة الأولى، لم تعد خديجة تسجل ما يقوله الناس.
بدأ الناس هم الذين يأتون إليها.
وكان أول شخص وصل إلى بابها يحمل ظرفًا بنيًا.
وضعه أمامها.
وقال:
ـــإذا كنتِ تريدين الحقيقة، فهذه هي البداية.
نظرت خديجة إلى الظرف.
لم تفتحه.
ليس بعد.
فقد تعلمت من المدينة شيئًا واحدًا:
أحيانًا لا تكون الحقيقة مخيفة لأنها مجهولة، بل لأنها حين تُفتح، لا يعود بالإمكان إغلاقها مرة أخرى.

القسم الخامس: الظرف البني

الفصل الأول: ما كان داخل الظرف

ظل الظرف على الطاولة ثلاثة أيام.

لم تفتحه خديجة.

في اليوم الأول كانت تخشى ما بداخله.

وفي اليوم الثاني أصبحت تخشى أن يكون خوفها هو الذي يمنعها من فتحه.

أما في اليوم الثالث، فقد شعرت أن الظرف نفسه بدأ يراقبها.

كان بنيَّ اللون، بلا اسم مرسل، ولا عنوان، ولا ختم.

مجرد ورق قديم مغلق بعناية.

قالت لها أمها:

ـــ افتحيه.

أجابت خديجة:

ـــ وماذا لو تمنيت بعد ذلك أنني لم أفتحه؟

ابتسمت أمها.

ـــ يا ابنتي، الأشياء التي نخاف فتحها لا تصبح أقل خطورة إذا تركناها مغلقة.

فتحت خديجة الظرف.

كان بداخله ملف صغير.

صور.

أسماء.

تواريخ.

وأوراق تحمل أختامًا رسمية.

تصفحت الصفحة الأولى.

ثم الثانية.

ثم توقفت.

كان أحد الأسماء مألوفًا.

مألوفًا جدًا.

رفعَت رأسها ببطء.

قالت:

ـــ مستحيل.

اقتربت أمها.

ـــ ماذا؟

لم تجب.

كانت تحدق في الاسم كأنها تنتظر أن يتغير.

لكن الحروف بقيت في مكانها.

ذلك الاسم كان لشخص كانت خديجة تعرفه.

شخص لم يخطر لها يومًا أنه يمكن أن يكون جزءًا من الحكاية التي تبحث عنها.
وفي أسفل الصفحة جملة مكتوبة بالقلم:
"إذا أردتِ أن تعرفي لماذا يخاف الناس، فابحثي عمّن يجعلهم يخافون".

الفصل الثاني: أول خيط
لم تنم خديجة تلك الليلة.
كانت الأوراق مبعثرة أمامها.
كل ورقة تقود إلى ورقة أخرى.
وكل اسم يفتح بابًا.
لكنها كانت تعرف أن الاقتراب من الحقيقة ليس مثل الاقتراب من باب بيت.
هناك أبواب إذا طرقتها، لا تعرف من سيفتح لك.
وفي الصباح اتصلت بصديقتها ليلى.
قالت:
ـــأحتاج أن أراكِ.
جاء صوت ليلى متوترًا:
ـــالآن؟
ـــنعم.
ـــأين؟
ـــفي المكان المعتاد.
ساد صمت قصير.
ثم قالت ليلى:
ـــلا تستخدمي الهاتف في الكلام عن الموضوع.
سألت خديجة:
ـــأي موضوع؟
أجابت ليلى:
ـــأنتِ تعرفين.
وأغلقت.
عندها شعرت خديجة ببرودة تسري في أطرافها.
لم تكن قد أخبرت ليلى بما وجدت.
فكيف عرفت؟

الفصل الثالث: المقهى القديم
كان المقهى شبه فارغ.
جلست المرأتان في زاوية بعيدة.
وضعت خديجة الملف على الطاولة.

لم تلمسه ليلى.
قالت:
ـــمن أين حصلتِ عليه؟
ـــوصل إلى باب البيت.
رفعت ليلى عينيها.
ـــإذن هم يريدونك أن تريه.
قالت خديجة:
ـــمن هم؟
لم تجب ليلى.
قالت خديجة:
ـــليلى.
تنهدت الأخرى.
ـــكنت أتمنى ألا تدخلي في هذا.
ـــفي ماذا؟
قالت ليلى:
ـــهناك أشياء تحدث خلف الأخبار التي نراها. وأحيانًا تكون الأخبار نفسها مجرد ستار.
سألت خديجة:
ـــوما علاقة الاسم الذي في الملف؟
خفضت ليلى صوتها:
ـــلأن الرجل الذي يحمل هذا الاسم لم يكن مجرد موظف.
ـــماذا كان؟
نظرت إليها طويلًا.
ثم قالت:
ـــكان يعرف أين ذهبت أشياء كثيرة.
ـــأي أشياء؟
ـــأموال. مساعدات. قرارات. ملفات.
توقفت.
ثم أضافت:
ـــوربما يعرف أيضًا لماذا بقي كثير من الناس بلا رواتب.
لم تشعر خديجة بالدهشة.
شعرت بشيء أشد قسوة.
الغضب.
لكنها كانت صحفية بما يكفي لتعرف أن الغضب لا يصنع الحقيقة.
قالت:
ـــهل لديك دليل؟

أجابت ليلى:
ـــلو كان عندي، لما كنت جالسة هنا.
ثم نهضت.
وقبل أن تغادر قالت:
ـــلا تبحثي عن شخص واحد لتلقي عليه كل شيء.
توقفت عند الباب.
ـــابحثي عن الطريقة.
ثم رحلت.

الفصل الرابع: الرجل الذي اختفى

بدأت خديجة تبحث عن صاحب الاسم.
لكن البحث لم يكن سهلًا.
كان الرجل قد اختفى من المشهد.
لا مكتب.
لا هاتف.
لا عنوان واضح.
حتى صورته على الإنترنت كانت قليلة.
سألت عنه موظفًا قديمًا.
قال:
ـــلا أعرفه.
ثم بعد لحظة:
ـــأو لا أريد أن أعرفه.
سألت شخصًا آخر.
قال:
ـــكان هنا.
ـــوأين ذهب؟
نظر الرجل حوله.
ـــهذا هو السؤال الذي لا يسأل عنه الناس.
في المساء، وصلتها رسالة قصيرة من رقم مجهول:
"توقفي".
ثم رسالة أخرى:
"أنت لا تعرفين ما الذي تبحثين عنه".
جلست خديجة تحدق في الهاتف.
ثم كتبت:
"ربما".

وأرسلتها.
جاء الرد بعد ثوانٍ:
"إذن لا تجعلي الأمر أسوأ".
وضعت الهاتف جانبًا.
ثم فتحت دفترها.
كتبت:
"حين يقول لك أحدهم إنك لا تعرف الحقيقة، اسأله: لماذا يخشى أن تعرفها؟"

الفصل الخامس: شهادة المرأة
بعد أسبوع، التقت خديجة بامرأة طلبت ألا يُذكر اسمها.
كانت في الخمسين تقريبًا.
جلست أمامها، ويداها ترتجفان.
قالت:
ـــأنا لا أريد مشاكل.
أجابت خديجة:
ـــلن أذكر اسمك.
قالت المرأة:
ـــحتى الاسم لا يكفي أحيانًا.
صمتت.
ثم أخرجت من حقيبتها إيصالًا قديمًا.
وضعته أمام خديجة.
ـــهذا ما استلمناه.
نظرت خديجة إلى الورقة.
ثم سألت:
ـــوماذا كان المفترض أن تستلموا؟
قالت المرأة:
ـــأكثر.
ـــمن قال ذلك؟
رفعت المرأة رأسها.
ـــكلنا كنا نعرف.
ثم أضافت:
ـــلكن لا أحد كان يستطيع أن يثبت شيئًا.
قالت خديجة:
ـــلماذا احتفظتِ بالإيصال؟
ابتسمت المرأة ابتسامة حزينة.

ـــلأنني كنت أعرف أنني في يوم ما سأحتاج إلى أن أثبت لنفسي أنني لم أتخيل كل هذا.
كانت تلك الجملة أثقل من الوثيقة نفسها.
فالإنسان حين يعيش طويلًا في الخوف يبدأ أحيانًا في الشك في ذاكرته.
هل حدث ذلك فعلًا؟
هل سمع هذا؟
هل رأى تلك الواقعة؟
هل ظلم أحدًا حين شك فيه؟
وهنا تكمن إحدى أقسى سلطات الخوف:
أن يجعلك تشك في عينيك.

الفصل السادس: الرسالة الثانية

عادت خديجة إلى منزلها في وقت متأخر.
وجدت ظرفًا آخر تحت الباب.
توقفت.
هذه المرة لم تخف.
فتحت الظرف فورًا.
ورقة واحدة.
جملة واحدة:
"إذا أردتِ أن تعرفي الحقيقة كاملة، اذهبي غدًا إلى المكان الذي بدأت منه الحكاية".
لم يكن هناك عنوان.
لكن خديجة عرفت المكان.
المبنى القديم الذي بدأت فيه أولى الأوراق.
المكان الذي ظنت أنه مجرد مكتب مهجور.
جلست على حافة السرير.
ثم نظرت إلى الساعة.
كان الليل قد بدأ.
قالت أمها:
ـــماذا هناك؟
أجابت:
ـــأظن أنني وجدت الباب.
سألتها:
ـــوهل ستدخلين؟
نظرت خديجة إلى الظرف.
ثم قالت:
ـــلا أعرف.

اقتربت أمها منها.
وضعت يدها على كتفها.
وقالت:
ـــلا تدخلي لأنك تريدين أن تكوني بطلة.
رفعت خديجة عينيها.
ـــفلماذا؟
قالت أمها:
ـــادخلي فقط إذا كنتِ مستعدة أن تعرفي الحقيقة حتى لو لم تعجبك.
بقيت الجملة في رأسها طويلًا.
وفي الصباح، خرجت خديجة.
لم تأخذ معها كاميرا.
ولا هاتفًا احتياطيًا.
ولا أحدًا.
أخذت دفترها فقط.
وعندما وصلت إلى المبنى، وجدت الباب مفتوحًا.
وهذا كان أول شيء أخافها.
لأن الأبواب المهجورة، في العادة، لا تنتظر أحدًا.
أما هذا الباب...
فقد كان مفتوحًا كأن شخصًا ما دخل قبلها بدقائق.
ومن الداخل جاء صوت ورق يُقلب.
توقفت خديجة.
ثم سمعت صوت رجل يقول:
ـــتأخرتِ يا خديجة.
تجمدت في مكانها.
لأنها لم تكن قد أخبرت أحدًا أنها ستأتي.
ولأن الصوت...
كان صوت الرجل الذي ظنت أنه اختفى منذ سنوات.

القسم السادس: الرجل الذي لم يختفِ

الفصل الأول: الصوت خلف الباب

لم تتحرك خديجة.

كان الصوت قد جاء من الغرفة الأخيرة في الممر.

صوتًا هادئًا، بلا تهديد، وهذا ما جعله أكثر إزعاجًا.

فالتهديد الصريح يمنح الإنسان فرصة ليعرف عدوه.

أما الهدوء، فإنه يترك له مساحة واسعة للشك.

قال الرجل:

ـــيمكنكِ الدخول.

بقيت في مكانها.

ثم قال:

ـــلو كنت أريد إيذاءك، لما تركت الباب مفتوحًا.

ابتسمت خديجة رغم خوفها.

وقالت:

ـــهذه ليست حجة مطمئنة.

جاءه صوت ضحكة قصيرة.

ـــيبدو أنكِ تعلمتِ شيئًا.

دخلت.

كان الرجل جالسًا خلف مكتب قديم.

أكبر سنًا مما تتذكره، أو ربما كانت ذاكرتها هي التي جعلته أصغر.

شعره شابَهُ الشيب، ووجهه بدا كأنه عاش سنوات أكثر من عمره.

قال:

ـــاجلسي.

لم تجلس.

قالت:

ـــقيل لي إنك اختفيت.

أجاب:

ـــلم أختفِ.

ـــإذن أين كنت؟

نظر إليها طويلًا.

ثم قال:

ـــفي المكان نفسه الذي يذهب إليه الناس حين يصبح وجودهم أخطر من غيابهم.

لم تفهم.

أو ربما فهمت أكثر مما أرادت.

قال:

ـــاسمي عادل.
كانت تعرف الاسم.
لكنها لم تعرفه بهذه الصورة.
كان في الملف موظفًا.
أما الآن، فكان أمامها رجل يحمل في عينيه شيئًا يشبه الاعتراف المؤجل.

الفصل الثاني: الأوراق التي لم تصل

أشار عادل إلى صندوق حديدي صغير.
قال:
ـــكل ما ترينه هنا وصلني خلال سنوات.
فتحت خديجة الصندوق.
ملفات.
إيصالات.
صور.
مراسلات.
قوائم.
قالت:
ـــلماذا احتفظت بها؟
أجاب:
ـــلأنني كنت أعتقد أنني سأستخدمها يومًا.
ـــولم تستخدمها؟
ـــحاولت.
ـــوماذا حدث؟
سكت.
ثم قال:
ـــاكتشفت أن الحقيقة لا تكفي وحدها.
رفعت رأسها.
ـــماذا تقصد؟
قال:
ـــتستطيعين أن تملكي وثيقة صحيحة، وشهادة صحيحة، وتاريخًا صحيحًا... ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يسمعك.
تأملت خديجة الأوراق.
قال:
ـــالناس يحبون القصص التي لها شرير واحد.
ثم ابتسم بمرارة.

ـــأما الحقيقة، فهي أقل أناقة.
سألته:
ـــماذا وجدت؟
أجاب:
ـــوجدت نظامًا كاملًا من الصمت.
ثم دفع إليها ملفًا.
ـــاقرئي.
فتحت الملف.
كانت الصفحات تتحدث عن أرقام وتواريخ وتحويلات ومراسلات.
لكن خديجة لم تنظر إلى الأرقام طويلًا.
كانت تبحث عن شيء آخر.
سألت:
ـــوأين الناس؟
قال عادل:
ـــهنا.
أشار إلى قائمة طويلة من الأسماء.
ـــكل رقم في هذه الأوراق كان يعني بيتًا.
ثم أضاف:
ـــالمشكلة أن الذين ينظرون إلى الورق يرون أرقامًا. والذين يعيشون النتيجة يرون وجوهًا.

الفصل الثالث: السؤال الخطأ

قالت خديجة:
ـــمن المسؤول؟
رفع عادل عينيه إليها.
وقال:
ـــهذا هو السؤال الذي أضاع علينا سنوات.
ـــلماذا؟
ـــلأنكِ إذا بحثتِ عن شخص واحد، ستجدين شخصًا واحدًا. ثم ينتهي الأمر.
ـــوماذا ينبغي أن أسأل؟
أجاب:
ـــكيف حدث هذا؟
سكتت.
كان الفرق بين السؤالين صغيرًا في الكلمات.
لكنه كان كبيرًا في المعنى.
قال عادل:

ـــاسألي: من وقّع؟ من نفّذ؟ من سكت؟ من استفاد؟ ومن كان يعرف ولم يتكلم؟
ثم اقترب منها.
ـــوالأهم: من جعل الآخرين يعتقدون أن الكلام لا فائدة منه؟
شعرت خديجة بأن الغرفة أصبحت أضيق.
قالت:
ـــولماذا تعطيني هذه الأشياء الآن؟
نظر إلى يديه.
ـــلأنني تعبت من الانتظار.
ـــانتظار ماذا؟
ـــأن يأتي شخص أكثر شجاعة مني.
ثم رفع رأسه.
ـــلكنني اكتشفت أن الشجاعة لا تأتي من الخارج. أحيانًا تأتي بعد أن يفقد الإنسان ما كان يخشى فقدانه.
لم تسأله ماذا فقد.
كانت تعرف أن بعض الأسئلة تحتاج إلى الصمت كي تجد جوابها.

الفصل الرابع: الاسم الثالث

بين الملفات وجدت خديجة ورقة مختلفة.
لا ختم عليها.
ولا توقيع.
فقط ثلاثة أسماء.
الأول تعرفه.
والثاني كان عادل.
أما الثالث، فلم تره من قبل.
قالت:
ـــمن هذا؟
تغير وجه عادل.
للمرة الأولى منذ دخلت، بدا عليه الخوف.
قال:
ـــلا تقتربي منه.
رفعت عينيها.
ـــلماذا؟
ـــلأنك لا تعرفين من يكون.
قالت:
ـــوأنت تعرف؟

صمت.
ثم قال:
ـــأكثر مما أتمنى.
وضعت الورقة على الطاولة.
ـــإذن هذا هو الشخص الذي أبحث عنه.
قال:
ـــلا.
ـــلماذا؟
ـــلأنك تبحثين عن الحقيقة.
وأشار إلى الاسم.
ـــأما هذا الرجل، فهو يبحث عن الذين يبحثون عنها.
شعرت خديجة ببرودة في ظهرها.
قالت:
ـــهل يراقبني؟
لم يجب.
وهذا كان جوابًا كافيًا.

الفصل الخامس: الطريق إلى البيت

خرجت خديجة من المبنى قبل الغروب.
كانت الشوارع مزدحمة، والناس يمشون في كل اتجاه، والسيارات تتدافع، والباعة ينادون.
كل شيء طبيعي.
وهذا ما جعلها تشعر بأن شيئًا غير طبيعي يحدث.
سارت بسرعة.
لم تلتفت خلفها.
ثم سمعت خطوات.
توقفت.
توقفت الخطوات.
تابعت.
تابعت الخطوات.
دخلت متجرًا صغيرًا.
تظاهرت بأنها تبحث عن شيء.
نظرت إلى انعكاسها في زجاج الواجهة.
رأت رجلًا يقف بعيدًا.
لم تستطع رؤية وجهه.
خرجت من المتجر.

اختفى.
واصلت السير.
وحين وصلت إلى البيت، وجدت أمها في المطبخ.
قالت:
ـــلماذا تأخرتِ؟
أجابت خديجة:
ـــكان الطريق مزدحمًا.
نظرت إليها أمها طويلًا.
ثم قالت:
ـــلا تكذبي عليّ.
جلست خديجة.
وضعت الملف أمامها.
قالت:
ـــأمي، هل تعتقدين أن بعض الحقائق لا تستحق أن نعرفها؟
أجابت أمها:
ـــبالطبع.
تفاجأت خديجة.
تابعت أمها:
ـــليس لأن الحقيقة سيئة، بل لأن الإنسان أحيانًا لا يكون مستعدًا لدفع ثمنها.
سألت خديجة:
ـــوهل أنا مستعدة؟
قالت أمها:
ـــلا أعرف.
ثم أضافت:
ـــلكنني أعرف أنك لم تعودي قادرة على العودة إلى ما كنتِ عليه.

الفصل السادس: التسجيل

في تلك الليلة، فتحت خديجة جهاز التسجيل.
لم تسجل قصة.
سجلت اعترافًا.
قالت:
ـــإذا وصل هذا التسجيل إلى أحد، فربما يعني أنني لم أستطع إكمال الطريق.
توقفت.
ثم تابعت:

ـــأنا لا أعرف إلى أين ستصل هذه الحكاية. ولا أعرف من هو الصادق ومن هو الكاذب بالكامل.
تعلمت أن الناس ليسوا ملفات، وأن المسؤولية لا تختصر دائمًا في اسم واحد.
تنفست بعمق.
ـــلكنني أعرف شيئًا واحدًا.
صمتت.
ثم قالت:
ـــهناك أشياء حدثت. وهناك أناس دفعوا ثمنها. وهناك من عرف، وهناك من صمت، وهناك من حاول أن يتكلم.
ثم أغلقت التسجيل.
لكنها لم تحفظه في هاتفها.
نقلته إلى ذاكرة صغيرة.
وأخفتها في مكان لا يعرفه أحد.
أو هكذا ظنت.

الفصل السابع: الباب الذي لم يكن مغلقًا

في الصباح، استيقظت خديجة على صوت أمها.
ـــخديجة.
فتحت عينيها.
كان صوت أمها مختلفًا.
نهضت بسرعة.
وجدتها واقفة عند باب الغرفة.
قالت:
ـــأين الملف؟
تجمدت خديجة.
ـــأي ملف؟
قالت أمها:
ـــلا تلعبي معي.
ذهبت خديجة إلى المكان الذي أخفت فيه الملف.
كان موجودًا.
لكن شيئًا آخر اختفى.
الذاكرة الصغيرة.
بحثت في الدرج.
تحت الملابس.
في حقيبتها.
في الكتب.

لا شيء.
ثم رأت ورقة صغيرة على الطاولة.
لم تكن هناك قبل أن تنام.
فتحتها.
جملة واحدة:
"أنتِ تبحثين في المكان الخطأ".
جلست خديجة.
لم تعد تعرف ماذا تخاف أكثر:
أن يكون أحدهم دخل البيت...
أم أن يكون أحدهم يعرفها أكثر مما تعرف نفسها.
رفعت الورقة.
وفي أسفلها كان هناك رقم.
ثلاثة أرقام فقط.
نظرت إليها طويلًا.
ثم فهمت.
لم يكن رقم هاتف.
كان رقم ملف.
الملف ٣١٧.
ذلك الرقم كان مكتوبًا في آخر صفحة من الأوراق التي أعطاها لها عادل.
لكنها لم تفتح الملف.
لأن عادل قال لها قبل أن تغادر:
"هناك ملفات لا تبحثين عنها".
والآن، للمرة الأولى، أدركت خديجة أن الملف الذي حذرها منه...
ربما كان هو الشيء الوحيد الذي يجب أن تبحث عنه.
رفعت الهاتف.
فتحت قائمة الأرقام.
ثم توقفت قبل أن تتصل.
لأن رسالة جديدة وصلت إلى الشاشة:
"لا تتصلي بعادل. لقد عرفنا أنه تحدث إليك".
بقيت خديجة تحدق في الرسالة.
ثم نظرت إلى الباب.
كان مغلقًا.
لكنها شعرت، للمرة الأولى، أن أحدًا يقف خلفه.
وكانت المشكلة...
أنها لم تعد تعرف أيهما أخطر:

أن تفتح الباب،
أم أن تتركه مغلقًا.

القسم السابع: الملف ٣١٧

الفصل الأول: لا تفتحي الباب

ظلت خديجة واقفة أمام الباب.

لم يكن خلفه أحد.

أو هكذا قالت لنفسها.

لكن الخوف لا يحتاج إلى دليل كي يعمل.

كان يكفيه احتمال.

وضعت يدها على المقبض، ثم سحبتها.

قالت في نفسها:

لن أفتح.

ثم تذكرت أن الرسالة قالت شيئًا أخطر:

لا تتصلي بعادل.

وهذا يعني أن هناك من يعرف ما حدث في ذلك المبنى.

ويعرف أنها ذهبت إليه.

ويعرف أن عادل تحدث معها.

ويعرف أنها تملك الملف.

جلست على الأرض.

فتحت دفترها الأزرق.

كتبت:

"حين يعرف شخص مجهول أين كنت، وماذا فعلت، وماذا تخفي، يصبح السؤال الحقيقي: ماذا يعرف عنك أكثر مما تعرف؟"

ثم أغلقت الدفتر.

كان عليها أن تفكر.

ولأول مرة منذ بدأت الحكاية، لم تفكر كصحفية.

فكرت كإنسانة تريد أن تعود إلى بيتها في المساء.

وهذا الفرق كان كبيرًا.

الفصل الثاني: الرقم القديم

اتصلت خديجة برقم لم تستخدمه منذ سنوات.

كان رقم أستاذها القديم في كلية الإعلام.

رد بعد رنين طويل.

قال:

ـــمن؟

ـــأنا خديجة.

صمت.

ثم جاء صوته:
ـــعرفت أنك ستتصلين يومًا.
تجمدت.
ـــكيف؟
ضحك بخفة.
ـــلأنك كنتِ تسألين كثيرًا.
قالت:
ـــأحتاج أن أسألك سؤالًا.
ـــاسألي.
ـــما الملف ٣١٧؟
لم يجب.
هذه المرة طال الصمت.
قالت:
ـــأستاذ؟
قال:
ـــمن أعطاك الرقم؟
ـــهل تعرفه؟
أجاب:
ـــأعرف ما يكفي لأقول لك: لا تفتحيه وحدك.
سألته:
ـــلماذا؟
قال:
ـــلأن بعض الملفات لا تحتوي على معلومات فقط.
ـــماذا تحتوي؟
أجاب:
ـــتحتوي على أسماء أشخاص ما زالوا أحياء.
قالت:
ـــوما المشكلة؟
تنهد.
ـــالمشكلة ليست في أن الأسماء موجودة.
ثم قال:
ـــالمشكلة في أن بعض أصحابها يعتقدون أن أحدًا لن يجرؤ على قراءتها.
أغلقت خديجة الهاتف.
ثم أعادت الاتصال.
لكن الخط كان مغلقًا.

الفصل الثالث: الرجل عند المخبز

في صباح اليوم التالي، خرجت خديجة لشراء الخبز.

كان الشارع مزدحمًا.

وقفت في الطابور.

ثم لاحظت الرجل.

كان يقف في الجهة الأخرى.

معطف رمادي.

وجه عادي.

لا شيء يلفت النظر.

وهذا تحديدًا ما جعلها تلاحظه.

حين تحرك الطابور، تحرك هو أيضًا.

دخلت خديجة شارعًا جانبيًا.

دخل خلفها.

توقفت.

التفتت إليه.

قال الرجل:

ـــلا تخافي.

قالت:

ـــلم أقل إنني خائفة.

ابتسم.

ـــالناس الذين يقولون ذلك يكونون خائفين عادة.

قالت:

ـــماذا تريد؟

قال:

ـــأنصحك فقط.

ـــممن؟

ـــمن الاستمرار.

قالت:

ـــومن أنت؟

نظر حوله.

ثم قال:

ـــشخص يعرف أن بعض الحقائق لا تجعل حياة الناس أفضل.

قالت:

ـــبل تجعلها أوضح.

أجاب:
ـــالوضوح ليس دائمًا نجاة.
ثم اقترب خطوة.
ـــاتركي الملف.
قالت:
ـــوأين هو؟
صمت الرجل.
وهنا عرفت خديجة شيئًا مهمًا.
هو لا يعرف مكان الملف.
لكنه يعرف أنه موجود.
قالت:
ـــلو كنت تملكه، لما جئت لتحذرني.
تغير وجهه.
كانت أول مرة ترى فيها الخوف على وجه شخص آخر.
ثم استدار وغادر.
بقيت خديجة مكانها.
وفي تلك اللحظة أدركت أن اللعبة تغيرت.
لم تعد تبحث وحدها.
هناك آخرون يبحثون أيضًا.

الفصل الرابع: عادل

وجدت خديجة عادل في المكان نفسه.
لكن هذه المرة لم يكن وحده.
كان جالسًا مع رجل مسن لم تره من قبل.
حين دخلت، نهض الرجل.
قال لعادل:
ـــقلت لك إن هذا سيحدث.
ثم خرج.
سألت خديجة:
ـــمن كان؟
قال:
ـــشخص جاء متأخرًا مثلي.
ـــإلى ماذا؟
ـــإلى الحقيقة.
جلست أمامه.

قالت:
ـــأخذوا الذاكرة.
رفع رأسه بسرعة.
ـــأي ذاكرة؟
ـــالتي كان عليها التسجيل.
سكت.
قالت:
ـــوأرسلوا لي رسالة.
ـــماذا قالوا؟
أخبرته.
أغلق عينيه.
ثم قال:
ـــانتهى الأمر.
غضبت.
ـــأي أمر؟
ـــقدرتك على التراجع.
قالت:
ـــلم أكن أريد التراجع.
نظر إليها.
ـــأعرف.
ثم أخرج مفتاحًا صغيرًا من جيبه.
وضعه أمامها.
قال:
ـــهذا للملف ٣١٧.
نظرت إلى المفتاح.
ـــأين الملف؟
قال:
ـــليس عندي.
ـــإذن لماذا أعطيتني المفتاح؟
أجاب:
ـــلأن الملف ليس ورقيًا.
صمتت.
قال:
ـــهناك نسخة أخرى.
ـــأين؟

نظر إليها.
ـــفي مكان لن يخطر لهم أن يبحثوا فيه.

الفصل الخامس: بيت الجدة

كان المكان بيت جدتها القديم.
بيتًا مهجورًا منذ سنوات.
دخلت خديجة وعادل من الباب الخلفي.
كان الغبار يغطي الأثاث.
رائحة الخشب القديم أعادتها إلى طفولتها.
قالت:
ـــما علاقة هذا بالملف؟
أجاب عادل:
ـــجدتك كانت تحتفظ بكل شيء.
ابتسمت.
ـــكانت تحتفظ بفواتير السوق.
ـــوكانت تحتفظ بأشياء أهم.
فتح عادل صندوقًا خشبيًا.
لم يكن بداخله شيء.
قالت:
ـــفارغ.
ـــالصندوق ليس هو المكان.
أشار إلى الأرض.
كانت هناك قطعة خشب مختلفة قليلًا.
رفعها.
ظهر تجويف صغير.
في داخله جهاز تخزين قديم.
أخذته خديجة.
قال عادل:
ـــهذا هو الملف.
سألته:
ـــلماذا هنا؟
أجاب:
ـــلأن الناس يبحثون عن أسرارهم في الأماكن التي تبدو مهمة.
ثم قال:
ـــولا أحد يبحث عن الحقيقة في بيت جدة.

ابتسمت خديجة.
لكن ابتسامتها اختفت عندما شغلت الجهاز.
ظهرت أمامها مجلدات كثيرة.
واحد منها يحمل الرقم:
317
ضغطت عليه.
ظهرت ملفات صوتية.
صور.
وثائق.
ثم ملف واحد بعنوان:
"الشهادة الأولى".
نظرت إلى عادل.
قال:
ـــشغليه.

الفصل السادس: الصوت
خرج صوت رجل من التسجيل.
كان متعبًا.
ومترددًا.
قال:
ـــلا أعرف إن كان أحد سيسمع هذا.
توقفت خديجة عن التنفس تقريبًا.
تابع الصوت:
ـــإذا وصلتم إلى هنا، فهذا يعني أنني لم أستطع قول ما أعرفه علنًا.
ثم ذكر تاريخًا.
ثم أسماء.
ثم تفاصيل.
لم تكن الأسماء مفاجئة كلها.
لكن شيئًا واحدًا كان صادمًا.
القصة لم تبدأ حين انقطعت الرواتب.
ولم تبدأ حين انهارت الخدمات.
ولم تبدأ حتى حين ظهرت أولى الوثائق.
كانت أقدم من ذلك.
بسنوات.
قال الرجل في التسجيل:

ـــالمشكلة لم تكن في غياب المال فقط.
صمت.
ثم أضاف:
ـــالمشكلة أن الناس اعتادوا غياب المساءلة.
رفعت خديجة عينيها إلى عادل.
كان شاحبًا.
تابع الصوت:
ـــعندما يعتاد الناس أن لا أحد يُحاسب، يصبح الظلم نظامًا، لا حادثة.
ثم توقف التسجيل.
ظهرت رسالة على الشاشة:
"هناك تسجيل آخر".
ضغطت خديجة.
لكن بدل الصوت ظهر ملف فيديو.
فتحته.
صورة غير واضحة.
غرفة.
طاولة.
ثلاثة رجال.
وفي منتصف الصورة...
ظهر وجه تعرفه خديجة.
وجه لم تكن تتوقع أن تراه في هذا المكان.
شهقت.
قال عادل:
ـــلا...
سألته:
ـــمن هذا؟
لم يجب.
أعادت النظر إلى الشاشة.
كان الرجل يتحدث.
لكن الصوت لم يكن واضحًا.
ثم ظهرت عبارة في أسفل الفيديو:
"الاجتماع الذي سبق كل شيء".
اقتربت خديجة من الشاشة.
وفجأة توقفت الصورة.
تحولت إلى شاشة سوداء.

ثم ظهر سطر واحد:
"إذا أردتِ النهاية، ابحثي عن المرأة التي لم تتحدث".
نظرت خديجة إلى عادل.
قال:
ـــهل تعرف من هي؟
أجاب بعد صمت طويل:
ـــنعم.
ـــمن؟
نظر إلى الباب.
ثم قال:
ـــأمك.
تجمدت خديجة.
لم تسمع شيئًا بعدها.
لا صوت الريح.
ولا خشب البيت.
ولا حركة الشارع.
فقط كلمة واحدة ظلت تدور في رأسها:
أمي؟
وفي اللحظة نفسها، رن هاتفها.
رقم مجهول.
أجابت.
لم يقل أحد شيئًا.
ثم جاء صوت امرأة.
هادئًا.
قديمًا.
مألوفًا.
قال:
ـــخديجة... لا تثقي بعادل.
ثم انقطع الاتصال.
رفعت خديجة عينيها إليه.
كان عادل ينظر إليها.
ولأول مرة منذ بدأت الحكاية، لم تعرف خديجة أيهما تصدق:
الرجل الذي فتح لها باب الحقيقة...
أم الصوت الذي خرج من الماضي ليغلقه.

القسم التالي: حين بدأت الجدران تتكلم

الفصل الأول: الورقة التي لم يكن ينبغي أن تصل

لم تكن خديجة تبحث عن الحقيقة.

وهذه، في رأيها، كانت أول قاعدة للنجاة.

كانت تبحث فقط عن عملها، عن راتب يكفي آخر الشهر، عن طريق قصير تعود به إلى البيت قبل أن يطول الليل، وعن جملة تستطيع أن تقولها أمام الكاميرا من غير أن تضطر بعدها إلى شرحها لأحد.

لكن الحقيقة، كما اكتشفت لاحقاً، لا تحتاج إلى من يبحث عنها.

أحياناً تكفيها ورقة صغيرة.

وجدت الورقة صباح الثلاثاء، مطوية بعناية داخل دفتر قديم في غرفة الأخبار.

لم يكن عليها اسم.

ولا توقيع.

فقط أربعة أرقام، وثلاثة تواريخ، وكلمة واحدة:

"اسألي".

ظلّت تحدق فيها طويلاً.

ثم ضحكت.

كانت ضحكة قصيرة، عصبية، لا تشبه الفرح في شيء.

قالت لنفسها:

—ومن قال إنني أريد أن أسأل؟

أغلقت الدفتر.

لكنها لم تستطع إغلاق الفكرة.

كانت الأرقام تشير إلى مبالغ مالية، والتواريخ تتطابق مع أيام أعلنت فيها المؤسسة التي تعمل معها عن مشاريع إغاثية واسعة.

لم تكن الأرقام كبيرة في عالم الأثرياء.

لكنها كانت كبيرة جداً في مدينة يعرف أهلها قيمة رغيف الخبز.

في ذلك اليوم، خرجت خديجة من العمل وهي تحمل الورقة في حقيبتها.

ولأول مرة، شعرت أن حقيبتها أثقل من المعتاد.

لم يكن فيها سوى هاتف، ومفاتيح، وبعض الأوراق.

ومع ذلك، كانت تمشي كما لو أنها تحمل سراً يمكن أن يسمعه الشارع كله.

الفصل الثاني: الرجل الذي لم يتحدث

كان اسمه سالم.

موظفاً قديماً، تجاوز الخمسين، عرفته خديجة منذ سنوات.

لم يكن من أصحاب الصوت العالي.

وكان ذلك تحديداً ما جعلها تنتبه إليه.

الناس الذين يصرخون يمكن تجاهلهم.
أما الذين يصمتون طويلاً، فإنك لا تعرف أبداً ما الذي يدور في رؤوسهم.
وجدته أمام المبنى في اليوم التالي.
كان يدخن سيجارة واحدة، مع أنه كان يقول دائماً إنه أقلع عن التدخين.
اقتربت منه.
قالت:
ـــرجعت؟
نظر إليها، ثم إلى الباب.
ـــلم أغادر أصلاً.
سكتت.
قال:
ـــهل وجدتِ الورقة؟
تجمدت ملامحها.
لم تجب.
ابتسم ابتسامة صغيرة.
ـــإذن وجدتها.
قالت:
ـــأي ورقة؟
رفع حاجبه.
ـــهذه أول مرة تكذبين فيها بشكل سيئ.
لم تضحك.
كان في صوته شيء جعل المزاح مستحيلاً.
قالت:
ـــماذا تريد؟
نظر حوله.
ثم قال:
ـــلا أريد شيئاً.
وتوقف.
ثم أضاف:
ـــلكن هناك أشياء يجب أن تعرفيها قبل أن تسألي.
ـــمثل ماذا؟
ـــمثل أن بعض الأسئلة لا تنتهي بإجابة.
قالت:
ـــوأنا صحفية.
قال:

ـــأعرف.
ثم أطفأ سيجارته.
ـــولهذا أخشى عليك أكثر.

الفصل الثالث: مدينة من الأبواب المغلقة

في الأيام التالية، بدأت خديجة ترى صنعاء بطريقة مختلفة.
لم تتغير الشوارع.
الأسواق هي الأسواق.
والوجوه هي الوجوه.
والبائع الذي ينادي على بضاعته ما زال ينادي.
لكنها بدأت تلاحظ الأبواب.
أبواب مغلقة في ساعات النهار.
مكاتب لا يدخل إليها أحد إلا بعد طرقات محددة.
هواتف تُقلب شاشاتها حين يقترب شخص غريب.
ومحادثات تتوقف فجأة عندما تدخل امرأة إلى الغرفة.
أدركت أن الخوف لا يحتاج إلى شرطي يقف على ناصية الشارع.
يكفي أن يسكن في رأس الإنسان.
في أحد المقاهي، جلست إلى جوار موظف حكومي.
سألته عن راتبه.
ابتسم.
ـــأي راتب؟
قالتها خديجة:
ـــراتبك الشهري.
ضحك.
ـــهذا سؤال تاريخي.
ـــلماذا؟
ـــلأن الراتب صار ذكرى.
ثم صمت.
قالت:
ـــهل تحدثتم عن ذلك في العمل؟
رفع فنجانه، وشرب ببطء.
ـــتحدثنا مرة.
ـــوماذا حدث؟
وضع الفنجان.
ـــلم نتحدث مرة ثانية.

لم تسأله لماذا.
كانت قد بدأت تفهم.

الفصل الرابع: المرأة التي فقدت ابنها مرتين

كانت أمينة تسكن في غرفة صغيرة عند طرف المدينة.
لم تكن تريد أن تتحدث أمام الكاميرا.
قالت لخديجة:
ـــصوري البيت إن شئتِ، لكن لا تصوري وجهي.
ـــلماذا؟
أجابت:
ـــلأنني أريد أن أظل أمّاً، لا خبراً.
كانت الجملة أقسى من كل ما قالته بعد ذلك.
حكت لها عن ابنها الذي كان يعمل في متجر صغير.
ثم مرض.
ثم تراكم الدين.
ثم باع هاتفه.
ثم باع دراجته.
ثم اختفى.
قالت:
ـــالناس يظنون أن الفقر يعني ألا يكون لديك مال.
ثم نظرت إلى نافذة مكسورة.
ـــلا. الفقر يعني أن كل شيء يصبح قابلاً للبيع.
سألتها خديجة:
ـــوهل عاد؟
هزت رأسها.
ـــعاد جسده.
ثم سكتت.
فهمت خديجة.
بعض الناس يعودون إلى بيوتهم، لكنهم لا يعودون كما كانوا.

الفصل الخامس: التسجيل

في تلك الليلة، فتحت خديجة هاتفها.
وجدت تسجيلاً صوتياً لم تتذكر أنها سجلته.
كان صوت سالم.
واضحاً.

هادئاً.
قال فيه:
"إذا وصل هذا التسجيل إليك، فاعلمي أنني لم أرسله بالخطأ".
توقفت خديجة عن التنفس تقريباً.
تابع الصوت:
"الأرقام التي وجدتها ليست سوى البداية".
ثم سُمع صوت باب.
صمت.
ثم قال:
"لا تثقي بمن يطلب منك أن تثقي به".
انتهى التسجيل.
ظلت خديجة تحدق في الشاشة.
ثم وصلتها رسالة.
رقم مجهول.
كلمتان فقط:
"توقفي الآن".
وضعت الهاتف على الطاولة.
للحظة، فكرت أن تطيع.
كان ذلك أسهل.
بل كان منطقياً.
الإنسان لا يحتاج إلى بطولة كي يعيش.
يحتاج إلى بيت.
وأهل.
وعمل.
وقدر قليل من الطمأنينة.
لكنها تذكرت أمينة.
تذكرت الموظف الذي قال إن راتبه أصبح ذكرى.
وتذكرت سالم وهو يقول:
"بعض الأسئلة لا تنتهي بإجابة".
نهضت.
وأغلقت الستارة.
ثم فتحت حاسوبها.
وأعادت النظر إلى الأرقام الأربعة.
هذه المرة لم تقل:
من أين جاءت؟

بل قالت:
إلى أين ذهبت؟
وهنا بدأت الحكاية الحقيقية.

القسم التالي: الخيط الذي قاد إلى الباب القديم

الفصل الأول: أربعة أرقام

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل.

والمدينة، التي كانت في النهار تتظاهر بأنها مشغولة، بدت في الليل أكثر صدقاً.

لا أصوات كثيرة.

لا سيارات إلا القليل.

ولا وجوه يمكن أن تخفي ما تفكر فيه.

جلست خديجة أمام الحاسوب، والورقة القديمة إلى جوارها.

أربعة أرقام.

ثلاثة تواريخ.

وكلمة واحدة.

اسألي.

فتحت ملفات قديمة.

ثم ملفات أقدم.

كانت تبحث عن الأسماء التي ظهرت في الأيام نفسها.

مشاريع.

تبرعات.

مساعدات.

مناقصات.

أرقام تتكرر.

أسماء تختفي ثم تعود.

وفي الساعة الثانية وسبع عشرة دقيقة، توقفت.

وجدت الاسم.

لم يكن اسماً مشهوراً.

وهذا ما أخافها.

فالناس الذين يملكون القوة لا يحتاجون دائماً إلى أن يكونوا مشهورين.

كان اسمه:

مروان القيسي.

موظف سابق في إحدى الجهات التي ارتبطت بالمشاريع التي كانت تحقق فيها.

فتحت صفحته القديمة.

لا صور حديثة.

لا حسابات نشطة.

ولا معلومات كثيرة.

لكن تحت صورة قديمة وجدَت تعليقاً من سالم، يعود إلى سنوات.

كلمتان فقط:

"الله يستر".
شعرت خديجة ببرودة في أطرافها.
لم يكن ذلك دليلاً.
بل ربما لم يكن شيئاً.
لكنها تعلمت أن التحقيقات الكبيرة لا تبدأ بالأدلة الكبيرة.
تبدأ أحياناً بتفصيل صغير يرفض أن يختفي.

الفصل الثاني: العنوان
كان العنوان في حي قديم.
بيت من طابقين.
بابه أزرق، طلاه الزمن بلون أقرب إلى الرمادي.
ذهبت خديجة وحدها.
لم تخبر أحداً.
وعندما وصلت، وقفت أمام الباب طويلاً.
لم تكن تعرف ماذا تقول.
ثم طرقت.
مرة.
مرتين.
جاءها صوت امرأة من الداخل:
ـــمن؟
قالت:
ـــأنا خديجة.
سكت الصوت.
ثم:
ـــأي خديجة؟
ابتسمت رغم توترها.
ـــخديجة التي لا تعرفينها.
فتح الباب قليلاً.
ظهرت امرأة في الستين تقريباً.
نظرت إليها.
ثم إلى الشارع.
ثم فتحت الباب.
ـــادخلي بسرعة.
دخلت خديجة.
وأغلقت المرأة الباب خلفها.

قالت:
ـــمروان لم يعد هنا.
ـــأعرف.
ـــمنذ ثلاث سنوات.
ـــأعرف.
نظرت إليها المرأة طويلاً.
ثم قالت:
ـــإذن لماذا جئت؟
أخرجت خديجة الورقة.
لم تعطها لها.
فقط وضعتها على الطاولة.
عندما رأت المرأة الأرقام، تغير وجهها.
قالت:
ـــمن أعطاك هذه؟
ـــوجدتها.
ـــأين؟
ـــلا أستطيع أن أقول.
ضحكت المرأة بحزن.
ـــإذا كنتِ لا تستطيعين أن تقولي من أين جاءت، فأنتِ تعرفين لماذا جئتِ.
جلست خديجة.
قالت:
ـــأريد أن أعرف أين مروان.
أجابت المرأة:
ـــوأنا أريد أن أعرف الشيء نفسه.

الفصل الثالث: الصورة

أخرجت المرأة صندوقاً خشبياً.
كان قديماً.
فتحت الغطاء.
صور عائلية.
أوراق.
رسائل.
وشهادة تقدير.
ثم أخرجت صورة واحدة.
وضعتها أمام خديجة.

كان فيها أربعة رجال يقفون أمام مبنى رسمي.
تعرفت خديجة إلى أحدهم.
ثم الثاني.
أما الثالث فكان مروان.
والرابع...
لم تعرفه.
لكنها رأت صورته من قبل.
على شاشة هاتف.
في ملف قديم.
وفي خبر لم يعد موجوداً على الموقع.
رفعت رأسها.
ـــمن هذا؟
قالت المرأة:
ـــلم يخبرني مروان باسمه.
ـــلكنه كان معه؟
ـــنعم.
ـــأكثر من مرة؟
هزت رأسها.
ثم قالت:
ـــوفي آخر مرة عاد فيها إلى البيت، قال شيئاً غريباً.
ـــماذا قال؟
نظرت إليها.
ـــقال: "المشكلة ليست في الذين يأخذون".
سكتت.
ثم أضافت:
" ـــالمشكلة في الذين يجعلون الناس يظنون أنهم لم يأخذوا شيئاً".
لم تفهم خديجة العبارة تماماً.
لكنها كتبتها.
بعض الجمل لا تفهمها حين تسمعها.
تفهمها عندما تصل إلى نهايتها.

الفصل الرابع: الصندوق الأسود

عندما عادت خديجة إلى بيتها، وجدت رسالة تحت الباب.
لم يكن عليها اسم.
ولا عنوان.

فتحتها بحذر.
داخلها مفتاح صغير.
ومكتوب:
"الغرفة ١٧".
ظلت واقفة.
مفتاح.
غرفة.
رقم.
ثلاث كلمات كانت كافية لتجعل الليل يبدو أقصر مما ينبغي.
في الصباح اتصلت بسالم.
لم يجب.
اتصلت مرة ثانية.
لا جواب.
الثالثة.
الهاتف مغلق.
ذهبت إلى مكان عمله.
قيل لها إنه لم يأتِ.
سألت:
ـــمنذ متى؟
أجاب الموظف:
ـــمنذ أمس.
قالت:
ـــهل تعرفون أين هو؟
رفع الرجل كتفيه.
ـــربما مريض.
خرجت.
وفي الطريق، أدركت أن شيئاً ما تغير.
لم تعد تبحث عن قصة.
القصة بدأت تبحث عنها.

الفصل الخامس: الغرفة ١٧
كان المبنى قديماً، شبه مهجور.
دخلت خديجة بعد الظهر.
وجدت الغرف مرقمة.
١٣.

١٤.
١٥.
ثم ممر طويل.
١٦.
١٧.
أدخلت المفتاح.
لم يفتح الباب من المحاولة الأولى.
حاولت ثانية.
فتح.
الغرفة فارغة تقريباً.
كرسي.
طاولة.
خزانة حديدية.
وساعة حائط متوقفة عند الخامسة وثلاث عشرة دقيقة.
اقتربت من الخزانة.
كانت مقفلة.
استخدمت المفتاح.
فتحت.
في الداخل ملف واحد.
أبيض.
على غلافه:
"المواطنون".
لا أسماء.
لا أرقام.
فقط هذه الكلمة.
فتحت الملف.
كان مليئاً بشهادات.
أشخاص كتبوا ما حدث لهم.
موظفون.
أمهات.
تجار.
طلاب.
وأسماء كثيرة.
لكن أكثر ما أوقفها لم يكن ما كتبوه.
بل الملاحظة الموجودة في نهاية كل شهادة:

"تم الاستلام".
وفي آخر صفحة وجدت اسماً تعرفه.
اسمها هي.
خديجة.
وتحته تاريخ اليوم.
شعرت أن الغرفة ضاقت فجأة.
جلست على الكرسي.
حدقت في الصفحة.
ثم سمعت صوتاً خلف الباب.
خطوة.
ثم أخرى.
لم تتحرك.
لم يكن هناك ما يمكن أن تفعله.
اقتربت الخطوات.
ثم توقف الصوت.
سكت كل شيء.
بعد ثوانٍ، تحرك مقبض الباب.
ببطء.
وانفتح.
لكن الشخص الذي دخل لم يكن غريباً.
كان سالم.
واقفاً أمامها.
وجهه شاحب.
وفي يده حقيبة سوداء.
نظر إلى الملف المفتوح.
ثم إلى اسمها.
وقال:
ـــكنت أتمنى ألا تصلي إلى هنا.
نهضت خديجة.
ـــأين كنت؟
لم يجب.
قالت:
ـــمن كتب اسمي؟
ظل صامتاً.
ثم وضع الحقيبة على الطاولة.

فتحها.
وأخرج منها عشرات الملفات.
وقال:
ـــلأن هذه ليست القصة التي تظنين أنك تحققين فيها.
تقدمت نحوه.
ـــوما القصة إذن؟
نظر إليها طويلاً.
ثم قال:
ـــالقصة أن كل شخص ظن أنه شاهد من الخارج...
وتوقف.
ـــكان في الحقيقة جزءاً منها.
سألته:
ـــوأنا؟
خفض عينيه إلى الملف.
ثم قال:
ـــأنتِ لم تكوني شاهدة يا خديجة.
رفع رأسه.
ـــأنتِ كنتِ واحدة من الشهود منذ البداية.
وفي تلك اللحظة، انطفأ الضوء.
ولم يبق في الغرفة سوى ضوء الهاتف الصغير على الطاولة.
وعلى شاشة الهاتف ظهرت رسالة جديدة:
"أخرجوها من هناك قبل أن تعرف الباقي".

القسم التالي: ما كان مخبأً في الضوء

الفصل الأول: الرجل الرابع

ظل الظلام في الغرفة ثواني قليلة.

لكن خديجة شعرت أنها دامت عمراً.

لم تكن تخاف الظلام نفسه.

كانت تخاف مما يمكن أن يحدث فيه.

سمعت سالم يقول:

ـــلا تتحركي.

ثم أضاء هاتفه.

ظهر وجهه نصف مضاء.

كان أكثر شحوباً مما رأته في حياتها.

قال:

ـــعندما يضيء النور، لا تنظري إلى الباب.

ـــلماذا؟

ـــفقط لا تنظري.

ابتلعت ريقها.

عاد التيار.

أضاء المصباح فجأة.

ولم تنظر خديجة إلى الباب.

نظرت إلى سالم.

كان واقفاً أمام الحقيبة.

قالت:

ـــتكلم.

جلس.

وأخرج الصورة القديمة.

وضع إصبعه على الرجل الرابع.

ـــهذا هو الشخص الذي تبحثين عنه.

ـــمن؟

ـــاسمه فؤاد.

ـــفؤاد ماذا؟

ـــفي هذه القصة، الاسم الأخير لا يهم.

نظرت إليه باستغراب.

ـــكيف لا يهم؟

قال:

ـــلأن الناس هنا لا تخاف الأسماء.

ثم أضاف:
ـــتخاف ما تستطيع الأسماء أن تفعله.

الفصل الثاني: دفتر الحساب

أخرج سالم دفتراً صغيراً.
لم يكن يشبه دفاتر المحاسبة.
لا جداول.
لا أرقام مرتبة.
مجرد صفحات مكتوبة بخط اليد.
قال:
ـــهذا ما جمعه مروان.
فتحت خديجة الدفتر.
كان فيه تاريخ.
ثم مبلغ.
ثم اسم.
ثم كلمة:
"لم يصل".
وفي صفحة أخرى:
"وصل ناقصاً".
وفي ثالثة:
"لم يصل أحد".
رفعت عينيها.
ـــهذه ليست حسابات.
قال سالم:
ـــهي حسابات الناس.
ثم قلب صفحة.
كان هناك اسم امرأة.
وبجواره مبلغ صغير.
قالت خديجة:
ـــمن هذه؟
ـــأم لطفلين.
ـــوما علاقة مروان بها؟
ـــكانت تنتظر مساعدة.
ـــهل وصلت؟
هز رأسه.

ـــلا.
قلب الصفحة.
اسم رجل.
موظف.
ثم اسم مدرسة.
ثم قرية.
ثم مستشفى.
كل صفحة كانت تحكي قصة قصيرة.
لكن مجموع الصفحات كان يقول شيئاً أكبر:
أن الفساد لا يبدأ دائماً بمبلغ ضخم.
أحياناً يبدأ من مبلغ صغير.
ومن توقيع صغير.
ومن موظف يقول:
"هذه ليست مشكلتي".
ثم يكبر.
حتى يصبح الفقر نفسه نظاماً لا يعرف أحد أين يبدأ وأين ينتهي.

الفصل الثالث: لماذا أنت؟
قالت خديجة:
ـــما زلت لم تجبني.
ـــعن ماذا؟
ـــلماذا اسمي في الملف؟
سكت سالم.
ثم قال:
ـــلأنك وقّعتِ.
تراجعت خطوة.
ـــوقّعت ماذا؟
أخرج ورقة.
كانت قديمة.
في أسفلها توقيعها.
توقيع تعرفه جيداً.
قالت:
ـــهذا مستحيل.
ـــمتى درستِ الإعلام؟
ـــقبل سنوات.

ـــوأثناء دراستك، هل تدربتِ في المؤسسة؟
ـــنعم.
ـــومن كان المشرف؟
ترددت.
ثم قالت:
ـــمروان.
أغمض سالم عينيه.
كأن الاسم وحده كان يؤلمه.
قال:
ـــفي ذلك الوقت، لم تكوني تعرفين ماذا توقعين.
أخذت الورقة.
قرأت العنوان.
كان عبارة عن نموذج موافقة على استخدام شهادات المواطنين في مادة إعلامية.
قالت:
ـــلكن هذه ليست جريمة.
ـــلا.
ثم نظر إليها.
ـــالجريمة كانت في الصفحة التالية.
قلبت الورقة.
كانت الصفحة الثانية مفقودة.
قالت:
ـــأين الصفحة؟
أجاب:
ـــهذه هي المشكلة.

الفصل الرابع: الصفحة المفقودة

كانت خديجة تعرف أن الورقة الناقصة أهم من الورقة الموجودة.
فالناس لا يخفون الأشياء التي لا قيمة لها.
قالت:
ـــمن أخذها؟
ـــلا أعرف.
ـــلكنك تعرف من كان يملك الملف.
ـــنعم.
ـــمن؟
لم يجب.

اقتربت منه.
ـــسالم.
رفع عينيه إليها.
ـــكنت أنا.
ساد الصمت.
لم تستوعب الجملة.
ـــأنت؟
ـــنعم.
ـــأنت من أزال الصفحة؟
هز رأسه.
ـــلا.
ـــإذن؟
قال:
ـــأنا من رأى الصفحة قبل أن تختفي.
جلست خديجة.
قالت:
ـــماذا كان فيها؟
نظر إلى الباب.
ثم قال بصوت منخفض:
ـــأسماء.
ـــأسماء من؟
ـــأشخاص لم يكن يفترض أن يعرف أحد أنهم تحدثوا.
فهمت.
لم تكن القضية أرقاماً فقط.
كانت هناك شهادات.
وأشخاص.
وأسر.
وحياة كاملة يمكن أن تتغير بسبب سطر مكتوب في ملف.

الفصل الخامس: الرسالة الثانية

قبل أن تتمكن خديجة من السؤال، اهتز هاتفها.
رسالة جديدة.
لم تكن من الرقم نفسه.
كان فيها عنوان فقط.
ثم جملة:

"إذا أردتِ معرفة الحقيقة عن أبيك، تعالي وحدك".

توقفت يدها.

لاحظ سالم تغير وجهها.

ـــماذا حدث؟

لم تجب.

قرأ الرسالة.

ثم قال:

ـــلا تذهبي.

ـــلماذا؟

ـــلأنهم يعرفون أين يؤلمك.

قالت:

ـــكيف يعرفون عن أبي؟

لم يجب.

صرخت:

ـــكيف يعرفون؟

ظل صامتاً.

وعندما لم تجد جواباً، أدركت شيئاً أكثر خطورة.

سالم لم يكن متفاجئاً من الرسالة.

كان متوقعاً لها.

قالت:

ـــكنت تعرف.

ـــكنت أخشى أن يعرفوا.

ـــمن؟

ـــفؤاد.

تراجعت.

الرجل الرابع.

الرجل الذي ظل اسمه ناقصاً.

الرجل الذي ظهر في الصورة مع مروان.

قالت:

ـــماذا يريد مني؟

أجاب سالم:

ـــالشيء نفسه الذي يريده كل من يملك سراً عنك.

ـــوما هو؟

قال:

ـــأن يقرر متى تعرفين الحقيقة.

الفصل السادس: أبو خديجة

لم يكن والد خديجة رجلاً غامضاً.

وهذا ما جعل الأمر أكثر إيلاماً.

كان موظفاً عادياً.

يعود إلى البيت في الموعد نفسه.

يشرب الشاي بالطريقة نفسها.

ويكره أن تظل الأبواب مفتوحة.

كانت تتذكر يديه.

يدين خشنتين.

تعبتا من العمل قبل أن يتعب وجهه.

لكنها لم تتذكر أنه أخبرها يوماً عن مروان.

ولا عن المؤسسة.

ولا عن أي شيء مما وجدته في الملفات.

عادت إلى البيت.

فتحت صندوقاً قديماً.

وجدت صوراً.

شهادة مدرسية.

ساعة متوقفة.

رسالة.

ثم ظرفاً بنياً.

لم تفتحه منذ سنوات.

كان عليه اسم والدها.

فتحته.

في الداخل صورة.

والدها يقف أمام المبنى نفسه الذي ظهر في الصورة القديمة.

لكن المفاجأة لم تكن هناك.

كانت في ظهر الصورة.

جملة مكتوبة بخط اليد:

"إن حدث لي شيء، اسألوا خديجة".

توقفت أنفاسها.

جلست على الأرض.

للمرة الأولى منذ بدأت الحكاية، لم تكن خديجة الصحفية.

كانت ابنة فقط.

ابنة وجدت نفسها أمام حياة أبيها التي لم تعرفها.

وبينما كانت تحدق في الصورة، سقط منها ظرف صغير.
فتحته.
وجدت بداخله مفتاحاً.
ومعه ورقة واحدة:
"المكان الذي لا يبحث فيه أحد".
رفعت رأسها.
وفكرت.
ثم عرفت.
المكان الوحيد الذي لا يبحث فيه أحد عن الأسرار هو المكان الذي اعتاد الجميع رؤيته كل يوم.

الفصل السابع: فوق المدينة
في صباح اليوم التالي، صعدت خديجة إلى سطح منزلها.
لم يكن هناك شيء مميز.
خزانات مياه.
حبال غسيل.
هوائيات.
وهواء بارد.
لكنها كانت تبحث عن شيء آخر.
عن المكان الذي يمكن أن يكون والدها قد أخفى فيه شيئاً.
تذكرت طفولتها.
تذكرت أنه كان يصعد إلى السطح كل مساء.
وكان يمنعها من الاقتراب من خزان ماء قديم.
قال لها ذات مرة:
—لا تلعبي هنا.
لماذا؟
لم يسألها.
الأطفال لا يسألون دائماً.
أما الكبار، فيتذكرون الأسئلة متأخرين.
اقتربت من الخزان.
كان قديماً.
رفعت غطاءه.
لم تجد شيئاً.
ثم لاحظت تجويفاً صغيراً في الجدار خلفه.
أدخلت يدها.
أخرجت صندوقاً معدنياً.

كان مغلقاً.
المفتاح الذي وجدته في الظرف دخل فيه.
فتحته.
وفي داخله شريط تسجيل قديم.
وثلاثة أسماء.
وصورة واحدة.
صورة لوالدها.
إلى جواره مروان.
وإلى جوارهما...
فؤاد.
لكن على ظهر الصورة كانت هناك جملة واحدة:
"الثلاثة عرفوا الحقيقة. واحد فقط قرر أن يتكلم".
رفعت خديجة الصورة.
ولم تعرف هل تشعر بالخوف...
أم أنها أخيراً وجدت الطريق.
وفي الأسفل، رن هاتفها.
رقم مجهول.
أجابت.
لم يتكلم أحد.
ثم جاء صوت رجل هادئ:
ـــالآن فقط بدأتِ تفهمين.
قالت:
ـــمن أنت؟
جاءها الجواب:
ـــاسألي والدك.
ثم انقطع الاتصال.
ظلت خديجة واقفة.
والشريط القديم في يدها.
لكن السؤال لم يعد:
من هو فؤاد؟
بل أصبح:
ماذا حدث لوالدها قبل أن يصبح الماضي ماضياً؟

القسم التالي: صوت من الماضي

الفصل الأول: الشريط

كانت خديجة تحدق في الشريط كأنها تحدق في أبيها.

لم يكن الشريط مجرد قطعة بلاستيكية قديمة.

كان صوتاً محتملاً.

وكان الصوت، بالنسبة لمن فقد شخصاً، أخطر من الصورة.

الصورة تقول لك أين كان.

أما الصوت فيقول لك ماذا كان يفكر.

دخلت غرفتها وأغلقت الباب.

بحثت في الصناديق القديمة حتى وجدت جهاز التسجيل الذي كان والدها يستعمله.

كان متعباً مثل الشريط.

وضعت البطاريات.

لم يعمل.

حاولت مرة.

ثم ثانية.

وفي المحاولة الثالثة صدر صوت خشخشة.

ثم صمت.

ثم...

صوت رجل.

صوت والدها.

توقفت خديجة عن التنفس.

قال:

ـــإذا كنتِ تسمعين هذا يا خديجة، فهذا يعني أنني لم أجد وقتاً لأخبرك.

سقطت دمعة على يدها.

تابع:

ـــلا أريدك أن تصدقي كل ما ستسمعينه.

صمت قليلاً.

ـــولا أريدك أن تكذبي كل ما ستسمعينه.

رفعت خديجة رأسها.

كانت تلك طريقته.

حتى وهو غائب، كان يرفض أن يعطيها جواباً سهلاً.

قال:

ـــهناك فرق بين الحقيقة وما يقال عنها.

ثم جاء صوت آخر في التسجيل.

رجل لم تعرفه.

قال:
ـــانتهى الوقت.
توقف التسجيل.
بقيت خديجة جامدة.
أعادت الشريط.
المقطع نفسه.
ثم اكتشفت شيئاً.
الصوت الثاني لم يكن غريباً تماماً.
لقد سمعته من قبل.
في مكان ما.
في الماضي.
لكن أين؟

الفصل الثاني: الاسم الثالث

في الصباح ذهبت إلى سالم.
لم تسأله إن كان يعرف شيئاً.
وضعت الصورة أمامه.
قالت:
ـــهذا أبي.
ثم وضعت الشريط.
ـــوهذا صوته.
ثم نظرت إليه.
ـــوالآن أريد الحقيقة.
لم يحاول سالم الهروب.
جلس.
وقال:
ـــوالدك كان يعرف مروان قبل أن تعرفيه أنت.
ـــلماذا؟
ـــكانا يعملان في الملف نفسه.
ـــأي ملف؟
سكت.
قالت:
ـــلا تجعلني أستخرج كل كلمة منك.
أجاب:
ـــملف المساعدات.

ثم أضاف:
ـــلكن الملف لم يكن مجرد ملف مساعدات.
ـــماذا كان؟
ـــكان يضم أسماء الناس الذين حصلوا على المساعدة، وأسماء الذين وافقوا عليها، وأسماء الذين لم يحصلوا عليها.
قالت:
ـــوهذا كل شيء؟
نظر إليها.
ـــلا.
ـــماذا أيضاً؟
ـــأسماء الذين كانوا يسألون عن الأموال.
هنا فهمت.
لم يكن الخطر فيمن أخذ.
بل فيمن بدأ يسأل.

الفصل الثالث: مروان

قال سالم:
ـــمروان كان أول من لاحظ التناقض.
ـــأي تناقض؟
ـــالأرقام.
ـــالتي وجدتها؟
ـــنعم.
ـــثم ماذا فعل؟
ابتسم سالم بحزن.
ـــفعل الشيء الذي يفعله الإنسان عندما يكتشف شيئاً لا يستطيع تجاهله.
ـــماذا؟
ـــأخبر شخصاً آخر.
قالت:
ـــأبي؟
هز رأسه.
ـــنعم.
ـــلماذا أبي؟
ـــلأنه كان يثق به.
توقفت.
قالت:

ـــوهل كان أبي صحفياً؟
ـــلا.
ـــإذن لماذا؟
أجاب سالم:
ـــلأن والدك كان يعرف الناس.
ثم سكت.
ـــوكان يعرف أن الأرقام وحدها لا تكفي.

الفصل الرابع: ثلاثة رجال

أخرج سالم ثلاثة ملفات.
الأول باسم مروان.
الثاني باسم والد خديجة.
الثالث باسم فؤاد.
قال:
ـــهؤلاء الثلاثة لم يكونوا متفقين.
ـــلكنهم كانوا يعملون معاً؟
ـــلفترة قصيرة.
ـــثم؟
ـــافترقوا.
قالت:
ـــلماذا؟
أجاب:
ـــلأن كل واحد منهم رأى الحقيقة من مكان مختلف.
فتح ملف مروان.
ـــمروان أراد أن يثبت ما حدث.
فتح ملف والدها.
ـــوالدك أراد أن يحمي الناس الذين ستظهر أسماؤهم.
ثم فتح ملف فؤاد.
ـــأما فؤاد...
توقف.
قالت:
ـــماذا أراد؟
نظر إليها.
ـــأراد أن يبقى كل شيء هادئاً.
قالت:

ـــوهل الهدوء سيئ؟
قال:
ـــليس دائماً.
ثم أغلق الملف.
ـــلكنه يصبح خطيراً عندما يكون ثمنه صمت الآخرين.

الفصل الخامس: الليلة الأخيرة

كانت هناك ليلة لم تعرف عنها خديجة شيئاً.
ليلة اجتمع فيها الرجال الثلاثة.
في مكان لم تعرفه.
قال سالم:
ـــوالدك أحضر معه وثائق.
ـــومروان؟
ـــأحضر نسخاً.
ـــوفؤاد؟
ـــأحضر شرطاً.
ـــما هو؟
قال سالم:
ـــأن تُغلق القضية.
سألته:
ـــوماذا حدث؟
قال:
ـــاختلفوا.
ـــثم؟
ـــخرج والدك أولاً.
ـــومروان؟
ـــخرج بعده.
ـــوفؤاد؟
سكت سالم.
قالت:
ـــأين كان؟
أجاب:
ـــبقي.
ـــمع من؟
ـــلا أعرف.

ثم أضاف:
ـــوفي صباح اليوم التالي اختفى مروان.
تجمدت خديجة.
ـــاختفى؟
ـــنعم.
ـــوأبي؟
خفض سالم عينيه.
ـــعاد إلى البيت.
ـــوبعدها؟
ـــلم يتحدث عن تلك الليلة.
قالت:
ـــلماذا؟
أجاب:
ـــلأن بعض الناس يصمتون خوفاً.
ثم نظر إليها.
ـــوبعضهم يصمتون لأنهم وعدوا شخصاً ميتاً.

الفصل السادس: أمينة تعرف

عادت خديجة إلى المرأة التي قابلتها في بيت مروان.
كانت أمينة تعرف أكثر مما قالت.
هذه المرة، عندما جلست أمامها، لم تبدأ خديجة بالسؤال.
وضعت الصورة على الطاولة.
ثم الشريط.
ثم قالت:
ـــكان مروان يعرف أبي.
لم تبدُ المفاجأة على وجه المرأة.
قالت:
ـــنعم.
ـــوأنت تعرفين؟
ـــكنت أعرف أن بينهما شيئاً.
ـــلماذا لم تخبريني؟
قالت:
ـــلأن مروان طلب مني ألا أخبر أحداً.
ـــحتى أنا؟
ابتسمت أمينة.

ـــأنتِ لم تكوني تعرفين شيئاً وقتها.
ثم فتحت درجاً صغيراً.
أخرجت منه ورقة.
قالت:
ـــلكنه ترك هذا.
فتحت خديجة الورقة.
كان فيها عنوان.
وتحته:
"الذين يظنون أن القصة انتهت لأن الرجل اختفى، لا يعرفون شيئاً عن القصص".
قالت خديجة:
ـــأين هذا المكان؟
قالت أمينة:
ـــفي صنعاء.
ـــأين؟
أشارت إلى السطر الأخير.
كان العنوان لدار أرشيف قديمة.
قالت أمينة:
ـــهناك ترك مروان آخر شيء.

الفصل السابع: الأرشيف
كان المبنى هادئاً بصورة تثير الريبة.
دخلت خديجة.
وجدت موظفاً عجوزاً خلف مكتب.
قالت:
ـــأبحث عن ملف قديم باسم مروان القيسي.
رفع الرجل رأسه.
نظر إليها.
ثم قال:
ـــأي مروان؟
قالت:
ـــمروان الذي كان هنا قبل سنوات.
ابتسم.
ـــهنا كان كثيرون.
وضعت الورقة أمامه.
عندما قرأ العنوان، تغير وجهه.

قال:
ـــمن أعطاك هذه؟
ـــرجل لم يعد موجوداً.
ظل صامتاً.
ثم نهض.
أخذ مفتاحاً.
وأشار إليها أن تتبعه.
مرّا بممر طويل.
ثم نزلا سلماً ضيقاً.
قال:
ـــلا تلمسي شيئاً.
ـــلماذا؟
ـــلأن بعض الملفات لا تزال تبحث عن أصحابها.
لم تفهم.
فتح غرفة صغيرة.
كان فيها رفوف كثيرة.
سحب ملفاً.
ثم آخر.
ثم ثالثاً.
وأخيراً أخرج صندوقاً.
وضعه أمامها.
ـــهذا لمروان.
فتحت الصندوق.
وجدت أوراقاً.
صوراً.
نسخاً من وثائق.
ثم ظرفاً أبيض.
عليه اسمها.
خديجة.
قالت:
ـــكيف وصل هذا إلى هنا؟
أجاب الرجل:
ـــمروان وضعه بنفسه.
فتحت الظرف.
كانت الرسالة قصيرة.

لكنها بددت سنوات كاملة من الصمت.
كتب مروان:
"إذا وصلت هذه الرسالة إلى خديجة، فمعنى ذلك أن والدها لم يستطع إخبارها بالحقيقة".
توقفت.
ثم قرأت السطر التالي:
"والحقيقة ليست أن أباك كان متورطاً".
تنفست.
لكن السطر الذي بعده جعل قلبها يضطرب:
"الحقيقة أنه حاول إيقاف شيء بدأ قبله بسنوات".
ثم جملة أخيرة:
"ولا تثقي بفؤاد، لكن لا تتعجلي في اتهامه أيضاً".
رفعت خديجة رأسها.
كانت تكره تلك الجملة.
لأنها أعادتها إلى النقطة نفسها.
كلما ظنت أنها أمسكت بالحقيقة، وجدتها تنقسم أمامها إلى حقيقتين.
وفي أسفل الرسالة كان هناك تاريخ.
تاريخ اليوم الذي اختفى فيه مروان.
لكن تحت التاريخ ملاحظة صغيرة:
"أنا لم أختفِ".
رفعت خديجة عينيها عن الورقة.
لأول مرة منذ بدأت الحكاية، لم تشعر بالخوف.
شعرت بشيء آخر.
الأمل.
وكان ذلك أخطر.
لأن الأمل يعني أن مروان ربما كان حياً.
وإذا كان حياً...
فقد يعرف أين يوجد والدها.
وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى هذه الفكرة، أغلق موظف الأرشيف الباب خلفها.
قال:
ـــهناك شيء آخر لم يخبرك به مروان.
استدارت.
ـــماذا؟
أجاب:
ـــأنه لم يكن وحده في تلك الليلة.
ثم أخرج صورة ثانية.

وفيها ظهر مروان.
ووالد خديجة.
وفؤاد.
لكن هذه المرة...
كان معهم شخص رابع.
شخص تعرفه خديجة جيداً.
شخص كانت تراه كل يوم.
ولم يخطر ببالها يوماً أن يكون جزءاً من القصة.

القسم التالي: ما تقوله الجدران

الفصل الأول: الرسالة التي لم تُرسل

كانت خديجة قد تعلمت، مثل كثيرين في صنعاء، أن الرسائل لا تحتاج إلى أن تصل حتى تؤدي وظيفتها.

يكفي أحيانًا أن تكتبها.

كتبت الرسالة في منتصف الليل، والمدينة خارج النافذة غارقة في عتمة لا يقطعها إلا ضوء مصباح بعيد، يلمع ثم يخفت كأنه يتردد في الظهور.

كتبت:

»إلى من يهمه الأمر«...

ثم توقفت.

ابتسمت.

من يهمه الأمر؟

كان السؤال نفسه أكثر خطورة من الرسالة.

مزقت الورقة.

كتبت من جديد.

هذه المرة لم تكتب إلى مسؤول، ولا إلى صحيفة، ولا إلى قناة تلفزيونية.

كتبت إلى نفسها.

»يا خديجة، إذا بقيتِ صامتة، فهل يعني هذا أنكِ نجوتِ؟«

وضعت القلم جانبًا.

لم تكن تعرف الإجابة.

لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا:

أن الصمت الطويل لا يجعل الإنسان آمنًا.

إنه يجعله معتادًا على الخوف.

وهذا أخطر.

الفصل الثاني: الرجل الذي كان يعرف أكثر مما ينبغي

في صباح اليوم التالي، دخلت خديجة مكتبًا صغيرًا في أحد أحياء صنعاء.

كان المكتب ضيقًا، والجدران مطلية بلون أصفر شاحب، وعلى الطاولة جهاز كمبيوتر قديم، وكومة من الأوراق، وفنجان قهوة باردة.

كان الرجل ينتظرها.

لم يسألها عن اسمها.

قال فقط:

ـــتأخرتِ.

أجابته:

ـــالطريق كان مزدحمًا.

رفع عينيه إليها.
ـــلم أقصد الطريق.
سكتت.
كان الرجل من أولئك الذين لا يحتاجون إلى رفع أصواتهم كي يجعلوا الآخرين ينتبهون.
دفع إليها ملفًا بنيّ اللون.
ـــافتحيه.
لم تفتحه.
قال:
ـــلماذا جئتِ؟
نظرت إلى الملف.
ثم إليه.
ـــأريد أن أعرف الحقيقة.
ضحك ضحكة قصيرة لم يكن فيها شيء من الفرح.
ـــهذه الجملة هي التي تجعل الناس في ورطة.
فتحت الملف.
كانت الصفحات مليئة بأسماء وتواريخ وأرقام.
موظفون لم يتقاضوا رواتبهم.
مؤسسات توقفت.
مشاريع أعلنت ولم تكتمل.
شكاوى اختفت.
وتوقيعات ظهرت في أماكن لم يكن أصحابها يعرفون أنها وُضعت فيها.
قلبت خديجة الصفحة تلو الأخرى.
ثم توقفت.
كان هناك اسم تعرفه.
اسم امرأة كانت قد قابلتها قبل أشهر.
امرأة قالت لها يومها:
»لا أريد شيئًا سوى أن أعيش دون أن أمد يدي لأحد«.

القسم التالي: مالك والباب الذي لم يُفتح

الفصل الأول: الرجل الذي مات مرتين

ظلّت خديجة تنظر إلى الرجل الواقف عند الباب.

كان وجهه شاحبًا، لكنه لم يكن وجه رجل عاد من الموت.

كان وجه رجل عاد من شيء أشد قسوة.

قالت:

ـــأبي مات.

لم يجب.

رفعت صوتها:

ـــرأيته يُدفن.

قال الرجل:

ـــرأيتِ ما أرادوا لكِ أن تريه.

تراجعت خديجة.

أما أمها فبقيت صامتة.

وهنا فهمت خديجة أن صمتها لم يعد حماية.

لقد صار اعترافًا.

قالت:

ـــمن أنت؟

نظر الرجل إلى أمها.

ثم قال:

ـــاسمي مالك.

تجمدت الأم.

كان وقع الاسم عليها أشد من وقع ظهوره.

قالت خديجة:

ـــمالك؟

أجاب:

ـــنعم.

ثم أضاف:

ـــوأنا لست أباك.

تنفست خديجة للمرة الأولى.

لكن الرجل تابع:

ـــوأنا أيضًا لم أقل إن أباك مات.

التفتت خديجة إلى أمها.

ـــماذا يحدث هنا؟

قالت الأم بصوت متعب:

ـــاجلسي.
ـــلا أريد أن أجلس!
ارتجف صوتها.
ـــأريد الحقيقة.
قال مالك:
ـــالحقيقة ليست كلمة يا خديجة. أحيانًا تكون سلسلة من الأبواب. وكل باب تفتحينه يغلق خلفك بابًا آخر.
ردت:
ـــوأنا تعبت من الأبواب.
ابتسم مالك بحزن.
ـــلهذا السبب تحديدًا جئت.

الفصل الثاني: دفتر الأب

وضع مالك صندوقًا صغيرًا على الطاولة.
كان خشبيًا، قديمًا، ومغلقًا بقفل نحاسي.
قال:
ـــهذا تركه والدك.
حدقت خديجة فيه.
ـــلماذا عندك؟
ـــلأنه طلب مني أن أحفظه.
ـــمنذ متى؟
ـــمنذ خمسة عشر عامًا.
اقتربت.
ـــولماذا تعطيني إياه الآن؟
قال مالك:
ـــلأن الرجل الذي كان يبحث عنه والدك بدأ يبحث عنك.
سألته:
ـــمن هو؟
لم يجب.
فتح الصندوق.
في داخله دفتر أسود.
لم يكن كبيرًا.
لكن الصفحات كانت ممتلئة بخط يد أبيها.
أخذته خديجة.
في الصفحة الأولى جملة واحدة:

»إلى خديجة، عندما تصبح الحقيقة أخطر من الصمت«.

أغلقت عينيها.

كان خط أبيها.

لم يكن هناك شك.

قلبت الصفحة.

وجدت أسماء.

تواريخ.

أماكن.

مبالغ مالية.

ثم كلمة تكررت مرات كثيرة:

الملف.

قالت:

ـــما هذا؟

قال مالك:

ـــسجل لما حدث.

ـــماذا حدث؟

نظر إليها طويلًا.

ـــشيء بدأ كخطأ صغير، ثم تحول إلى شبكة من الخوف.

سألت:

ـــوهل كنت جزءًا منها؟

ساد الصمت.

قال مالك:

ـــكنت أحاول تفكيكها.

ضحكت خديجة بمرارة.

ـــهذه إجابة شخص يخفي شيئًا.

قال:

ـــوأنتِ أصبحتِ صحفية الآن.

ـــماذا تقصد؟

ـــأقصد أنك تعلمتِ أن أخطر الإجابات هي التي تبدو كاملة.

الفصل الثالث: الاسم الثالث

قلبت خديجة الصفحات بسرعة.

وفجأة توقفت.

كان هناك اسم محاط بدائرة.

سالم.

سألت:
ـــمن سالم؟
لم يجب مالك.
نظرت إلى أمها.
خفضت الأم عينيها.
قالت خديجة:
ـــأريد أن أعرف.
قال مالك:
ـــسالم لم يكن موظفًا كبيرًا ولا رجلًا مشهورًا.
ـــإذن من كان؟
ـــكان موظفًا عاديًا.
ـــوماذا فعل؟
ـــتكلم.
ضحكت خديجة.
ـــهل أصبح الكلام جريمة؟
قال مالك:
ـــليس الكلام.
ثم نظر إلى الدفتر.
ـــما تقوله بعد أن يعرف الناس أنك قلته.
صمت قليلًا.
ثم تابع:
ـــسالم اكتشف شيئًا يتعلق بأموال موظفين لم تصل إليهم. حاول أن يسأل. ثم حاول أن يشتكي.
ثم اختفى.
قالت خديجة:
ـــوماذا حدث له؟
ـــلا أحد يعرف.
لكنها لاحظت شيئًا.
كان مالك يتجنب النظر إليها.
قالت:
ـــأنت تعرف.
رفع عينيه.
ـــنعم.
ـــأين هو؟
قال مالك:
ـــكان حيًا عندما رأيته آخر مرة.

ـــومتى كان ذلك؟
ـــقبل ثلاثة أيام.
ساد الصمت.
قالت خديجة:
ـــثلاثة أيام؟
أومأ.
ـــوهذا يعني...
قال مالك:
ـــأنه ربما لا يزال حيًا.

الفصل الرابع: المكالمة

رن هاتف خديجة.
رقم مجهول.
نظرت إلى مالك.
قال:
ـــلا تجيبي.
سألته:
ـــلماذا؟
ـــلأنهم يعرفون أننا هنا.
رن الهاتف مرة أخرى.
ثم توقف.
بعد ثوانٍ وصلت رسالة:
»مالك كذب عليك«.
تغير وجهها.
نظرت إليه.
ـــلماذا قالوا ذلك؟
أجاب:
ـــلأنهم يريدونك أن تشكي بي.
ـــوهل أكذب عليك؟
ـــلا أعرف.
قالت:
ـــلكنك تعرف.
لم يجب.
فتحت الرسالة التالية.
»اسأليه عن ليلة المطار«.

رفعت عينيها.
ـــما هي ليلة المطار؟
للمرة الأولى، ظهر الاضطراب على وجه مالك.
قالت:
ـــمالك؟
ظل صامتًا.
فصرخت:
ـــما الذي حدث في المطار؟
قالت أمها:
ـــلا تسأليه.
استدارت إليها خديجة.
ـــلماذا؟
قالت الأم:
ـــلأنك إذا عرفتِ، فلن تعودي قادرة على العودة إلى حياتك القديمة.
أجابتها خديجة:
ـــأمي، حياتي القديمة انتهت منذ اللحظة التي قلتِ فيها إن أبي ربما لم يمت.

الفصل الخامس: ليلة المطار

خرجوا من البيت بعد منتصف الليل.
كانت صنعاء باردة.
الطرقات شبه خالية.
جلس مالك خلف المقود، بينما كانت خديجة إلى جواره.
لم تتحدث معه طوال الطريق.
حتى وصلوا إلى مبنى قديم.
قال:
ـــهنا بدأت الحكاية.
نظرت إليه.
ـــالمطار؟
أجاب:
ـــليس المطار نفسه.
وأشار إلى مبنى مهجور بالقرب منه.
دخلا.
كانت الجدران متآكلة.
في الداخل غرفة صغيرة.
وضع مالك مصباحًا على الطاولة.

ثم قال:
ـــفي تلك الليلة، كان والدك سيغادر.
ـــلماذا؟
ـــلأنه اكتشف أن الملف الذي بحوزته لم يكن مجرد ملف فساد.
سألته:
ـــماذا كان؟
نظر إليها.
ـــكان يحتوي أسماء أشخاص.
ـــأي أشخاص؟
ـــأشخاصًا لا يريد أحد أن يعرف أنهم التقوا ببعضهم.
فتحت الدفتر.
وجدت الصفحة الأخيرة.
كان فيها اسم واحد.
خديجة.
حدقت فيه.
ـــاسمي؟
قال مالك:
ـــنعم.
ـــلكنني كنت طفلة.
ـــلهذا السبب تحديدًا.
ثم أضاف:
ـــوالدك لم يكن يحاول إنقاذ نفسه.
توقفت.
ـــكان يحاول إنقاذك.

الفصل السادس: الصورة الأخيرة
أخرج مالك صورة من جيبه.
وضعها أمامها.
نظرت خديجة.
كانت الصورة لها.
لكنها لم تكن طفلة كما في الصور العائلية.
كانت أصغر.
ربما في الثالثة من عمرها.
وكانت واقفة بجوار والدها.
لكن خلفهما وقف رجل آخر.

رجل لم تعرفه.
قالت:
ـــمن هذا؟
قال مالك:
ـــهذا هو الرجل الذي تبحثين عنه.
ـــمن يكون؟
اقترب مالك من الصورة.
وقال:
ـــالشخص الذي كان والدك يظنه صديقًا.
سكت قليلًا.
ثم أضاف:
ـــوكان آخر شخص رآه قبل اختفائه.
قلبت خديجة الصورة.
كان على ظهرها تاريخ.
ثم جملة بخط والدها:
»إذا وصلت الصورة إلى ابنتي، فلا تثق بمن يقول إنني مت«.
رفعت خديجة رأسها.
لكن مالك لم يكن أمامها.
اختفى.
خرجت إلى الممر.
نادته.
لا جواب.
ثم سمعت صوتًا خلفها.
صوتًا تعرفه.
صوت أمها.
ـــخديجة...
استدارت.
كانت أمها واقفة عند الباب.
وفي يدها هاتف.
قالت:
ـــمالك لم يختفِ.
ـــأين هو؟
قالت الأم:
ـــخرج ليقابل الرجل الذي كان يلاحقنا طوال هذه السنوات.
سألت خديجة:

ـــومن هو؟
نظرت أمها إليها.
وقالت:
ـــالرجل الذي كنتِ تنادينه وأنتِ طفلة ...**عمي**.
ثم انطفأ المصباح.
وفي الظلام، رن هاتف خديجة.
رسالة واحدة فقط:
»إذا أردتِ أن تعرفي أين أبوك، تعالي وحدك«.
ولأول مرة منذ بدأت الحكاية، لم تشعر خديجة بالخوف.
شعرت بالغضب.
والغضب، حين يخرج من سنوات طويلة من الصمت، لا يعرف كيف يعود إلى مكانه.
وضعت الهاتف في جيبها.
ثم قالت:
ـــهذه المرة... أنا التي سأختار الباب.
وكانت لا تعرف أن خلف الباب التالي، لم تكن تنتظرها إجابة.
بل الحقيقة التي ستجبرها على إعادة قراءة كل شيء ظنّت أنها تعرفه عن أبيها، وأمها، ومالك، وعن نفسها.

رفعت خديجة رأسها.
ـــمن أين حصلت على هذا؟
أجاب الرجل:
ـــالسؤال ليس من أين.
ثم أضاف:
ـــالسؤال هو: ماذا ستفعلين بعدما عرفتِ؟
وللمرة الأولى أدركت خديجة أن معرفة الحقيقة ليست نهاية الحكاية.
إنها بدايتها.

الفصل الثالث: المدينة التي تتكلم همسًا
خرجت من المكتب.
كانت صنعاء كما هي.
باعة في الشوارع.
سيارات متعبة.
وجوه مسرعة.
أطفال يركضون خلف كرة صغيرة.
امرأة تحمل كيسًا أثقل من ذراعيها.

رجل يقف أمام متجر، يحسب نقوده للمرة الثالثة.
كل شيء يبدو عاديًا.
لكن خديجة لم تعد تراه عاديًا.
فبعد أن تعرف شيئًا، تتغير الأشياء القديمة دون أن تتغير هي.
الشارع نفسه يصبح وثيقة.
الوجه نفسه يصبح شهادة.
والصمت يصبح جملة كاملة.
دخلت مقهى صغيرًا.
جلست في زاوية بعيدة.
سمعت رجلين يتحدثان.
قال الأول:
ـــالأسعار ارتفعت.
قال الثاني:
ـــلا تتكلم.
ـــأنا لا أتكلم عن أحد.
ـــفي هذه الأيام، حتى الكلام عن الأسعار قد يُفهم خطأ.
صمت الرجلان.
وبعد دقائق، غادرا.
كتبت خديجة في دفترها:
»حين يخاف الناس من وصف الجوع، يصبح الجوع أقوى من الطعام«.
ثم أغلقت الدفتر.
كانت قد بدأت تفهم شيئًا لم تتعلمه في كلية الإعلام.
أن أخطر الأخبار ليست تلك التي تُمنع من النشر.
بل تلك التي يتعلم الناس ألا يقولوها أصلًا.

الفصل الرابع: الملف الأسود
في تلك الليلة، وصلها الملف الثاني.
لم يكن كبيرًا.
ثلاث عشرة صفحة فقط.
لكن الصفحة الأولى جعلت يدها ترتجف.
لم يكن فيها اسم واحد.
كان فيها عنوان:
»أشخاص يجب ألا يتحدثوا«.
وتحت العنوان عشرات الأسماء.
صحفي.

موظف.
مدرس.
تاجر.
طبيب.
امرأة ناشطة.
شاب كتب تعليقًا على هاتفه.
رجل اشتكى من انقطاع الكهرباء.
لم يكن بينهم رابط واضح.
لكن خديجة لاحظت شيئًا.
كل شخص في القائمة كان قد قال، في وقت ما، شيئًا لم يعجب شخصًا أقوى منه.
جلست طويلًا أمام الورقة.
ثم قالت لنفسها:
ـــإذن ليست المشكلة في الكلمات.
كانت المشكلة فيمن يملك حق سماعها.

الفصل الخامس: الشاهد

في اليوم التالي، قابلت خديجة امرأة مسنّة.
قالت المرأة:
ـــلا تكتبي اسمي.
ـــلماذا؟
ـــلأنني أريد أن أعيش ما بقي من عمري.
سألتها خديجة:
ـــوماذا تريدين أن تقولي؟
نظرت المرأة إلى يديها.
كانت الأصابع نحيلة، والجلد مجعدًا، لكن الصوت بقي ثابتًا.
ـــأريد أن أقول إننا تعبنا.
توقفت.
ثم قالت:
ـــلا أريد ثورة، ولا أريد منصبًا، ولا أريد أن أصبح مشهورة.
رفعت عينيها.
ـــأريد فقط أن أفتح باب بيتي ولا أخاف مما سيأتي بعده.
كتبت خديجة الجملة.
لكنها لم تكتب كل شيء.
كانت تعرف أن بعض الحقائق، إذا خرجت ناقصة، قد تؤذي صاحبها أكثر مما تنصفه.
وفي تلك اللحظة فهمت أن الصحافة ليست مجرد أن تقول ما تعرف.

أحيانًا تكون شجاعة أن تعرف **ما الذي يجب ألا تكشفه بعد.**

الفصل السادس: أول كذبة

في المساء، عادت خديجة إلى منزلها.

وجدت أمها تنتظرها.

قالت:

ـــأين كنتِ؟

ـــفي العمل.

سألتها الأم:

ـــطوال هذا الوقت؟

أجابت:

ـــنعم.

كانت تلك أول كذبة حقيقية تقولها خديجة لأمها.

لم تكن كذبة كبيرة.

لكنها شعرت بثقلها في حلقها.

دخلت غرفتها وأغلقت الباب.

وضعت الملفات في حقيبة صغيرة.

ثم أخفت الحقيبة في مكان لم يخطر لأحد أن يبحث فيه.

جلست على حافة السرير.

وفجأة سمعت طرقًا على الباب.

ثلاث طرق.

ثم صمت.

تجمدت.

طرقٌ آخر.

هذه المرة طرقتان فقط.

لم تتحرك.

جاء صوت أخيها من الخارج:

ـــخديجة؟

تنفست.

ـــنعم؟

ـــهل أنتِ بخير؟

أجابت:

ـــنعم.

سكت قليلًا.

ثم قال:

ـــأنتِ تكذبين.
لم تعرف ماذا تقول.
فقال من خلف الباب:
ـــلا بأس.
ثم ابتعد.
بقيت خديجة وحدها.
نظرت إلى الحقيبة.
كانت تعرف أن الخوف لم يعد يسكن المدينة فقط.
لقد وجد طريقه إلى البيت.
إلى الغرف.
إلى الأبواب.
إلى العلاقات بين الناس.
وحتى إلى كلمة «نعم.«
وفي تلك الليلة، قبل أن تنام، اتخذت قرارًا لم تكن تعرف أنه سيغير حياتها كلها.
لن تبحث عن بطولة.
ولن تبحث عن عدو.
ستبحث فقط عن الحقيقة.
لكن الحقيقة، كما ستكتشف لاحقًا، لا تحب أن يبحث عنها أحد.
لأنها حين تظهر...
تطلب ثمنًا.

القسم التالي: الرجل الذي يعرف اسمها

الفصل الأول: الرقم المجهول

استيقظت خديجة قبل الفجر بقليل.

لم تكن قد نامت إلا ساعات قليلة، وربما لم تنم أصلًا؛ فقد كان جسدها على السرير، أما عقلها فظل واقفًا أمام الحقيبة الصغيرة المخفية في غرفتها.

مدت يدها إلى الهاتف.

كانت هناك رسالة.

من رقم مجهول.

فتحتها.

لم يكن فيها سوى سطر واحد:

»لا تذهبي إلى المكتب اليوم«.

ظلت تنظر إلى الكلمات.

ثم أعادت قراءتها.

لا اسم.

لا تفسير.

لا تهديد.

وهذا ما جعلها تخاف أكثر.

فالتهديد الصريح يمكن مقاومته.

أما التحذير، فلا تعرف أين تضعه.

وضعت الهاتف جانبًا.

بعد دقيقة، عاد إلى الاهتزاز.

رسالة ثانية.

»والملف ليس في المكان الذي تظنينه«.

شعرت ببرودة في أطرافها.

نهضت.

ذهبت إلى الخزانة.

فتحتها.

الحقيبة كانت هناك.

كما تركتها.

فتحتها.

الملفات في مكانها.

لكن شيئًا واحدًا كان قد تغير.

الورقة الأخيرة اختفت.

الفصل الثاني: الرجل في آخر المقهى

لم تذهب خديجة إلى المكتب.
بدلًا من ذلك، جلست في مقهى صغير، اختارت طاولة في زاوية تستطيع منها رؤية الباب.
كانت تنتظر.
لا تعرف من تنتظر.
بعد عشر دقائق دخل رجل.
لم يكن لافتًا.
وهذه كانت أول ملاحظة جعلتها تنتبه إليه.
معطف داكن.
حذاء عادي.
ملامح لا تعلق في الذاكرة.
جلس في الطرف الآخر من المقهى.
لم ينظر إليها.
طلب الشاي.
أخرج صحيفة قديمة.
فتحها.
ظل يقرأ.
مرت خمس دقائق.
ثم قال دون أن يرفع عينيه:
ـــ لا تنظري إليّ.
توقفت أنفاسها لحظة.
ـــ لماذا؟
ـــ لأن الشخص الذي يراقبنا يريدك أن تنظري إليّ.
رفعت فنجانها ببطء.
قال:
ـــ جيد.
ثم طوى الصحيفة.
هذه المرة نظر إليها.
وقال:
ـــ أنتِ خديجة.
لم تجب.
ـــ درستِ الإعلام.
صمتت.
ـــ وكنتِ تحلمين بأن تصبحي مذيعة.
بدأ قلبها يخفق.
ـــ من أنت؟

ابتسم.
ـــالسؤال الخطأ.
ـــوما السؤال الصحيح؟
قال:
ـــلماذا أصبحتِ مذيعة في خيالك، وصرتِ صحفية في الواقع؟
لم تجد جوابًا.
فقال:
ـــلأنكِ لم تعودي تريدين أن تقولي للناس ما حدث.
ثم توقف.
ـــأصبحتِ تريدين أن تعرفي لماذا حدث.
شعرت خديجة أن الرجل لم يكن يخمن.
كان يعرف.
وهذا أسوأ.

الفصل الثالث: الاسم المحذوف

أخرج الرجل ورقة صغيرة.
وضعها على الطاولة.
لم يدفعها نحوها.
قال:
ـــهل تعرفين هذا الاسم؟
نظرت.
كان الاسم مشطوبًا بحبر أسود.
لكنها عرفته.
تغير وجهها.
ـــأين وجدته؟
قال:
ـــفي الملف الذي معك.
ـــلا.
ـــبل نعم.
هزت رأسها.
ـــهذا الاسم لم يكن موجودًا.
قال بهدوء:
ـــكان موجودًا.
ـــأنا قرأت الملف كاملًا.
ـــوأنتِ قرأتِ النسخة التي أرادوا لكِ أن تقرئيها.

سكتت.
ثم سألته:
ـــمن هم؟
ابتسم ابتسامة خفيفة.
ـــأنتِ ما زلتِ تبحثين عن «هم.«
ثم مال إلى الأمام.
ـــوهذه أول غلطة.
ـــماذا تقصد؟
ـــلا يوجد «هم» واحد.
كانت الجملة أثقل مما بدت.
قال:
ـــهناك أشخاص يخافون.
ـــوأشخاص يستفيدون.
ـــوأشخاص ينفذون.
ـــوأشخاص يصمتون.
ثم أضاف:
ـــوأخطرهم جميعًا أولئك الذين يقنعون أنفسهم بأنهم لا يملكون خيارًا.
شعرت خديجة أن الرجل لا يحدثها عن السياسة.
كان يحدثها عن البشر.
عن الطريقة التي يتحول بها الإنسان، خطوة بعد خطوة، من شاهد إلى شريك، ومن ضحية إلى أداة.

الفصل الرابع: سرّ لم تعرفه

قال الرجل:
ـــلديكِ أخ أصغر.
تجمدت.
لم تتكلم.
ـــيعمل أحيانًا في متجر قريب من منزلكم.
ظل وجهها ثابتًا، لكن يدها أمسكت الفنجان بقوة.
تابع:
ـــوفي العام الماضي، حدثت له مشكلة.
وضعت الفنجان.
ـــتوقف.
رفع يده.
ـــلن أؤذيه.

ـــمن أنت؟
ـــشخص يحاول منعك من ارتكاب خطأ ارتكبه شخص قبلك.
ـــأي خطأ؟
نظر إليها طويلًا.
ثم قال:
ـــأن تظني أن ما تبحثين عنه بدأ بالملف.
سكت.
ـــلقد بدأ قبل ذلك بكثير.
سألته:
ـــمتى؟
قال:
ـــيوم كنتِ طالبة.
شعرت كأن الغرفة اتسعت فجأة.
تذكرت أيام الجامعة.
الممرات.
الزملاء.
المحاضرات.
أستاذًا كان دائمًا يطلب من الطلاب أن يكتبوا عن «الحقيقة.«
تذكرت مشروع التخرج.
تذكرت شريطًا قديمًا لم تعد تعرف أين وضعته.
وتذكرت شيئًا لم تفكر فيه منذ سنوات.
صورة.
صورة جماعية لطلاب دفعتها.
كان هناك شخص يقف في الخلف.
رجل لا تعرفه.
لكنها رأت وجهه مرات كثيرة.
رفعت عينيها إليه.
ـــأنت كنت هناك.
لم يجب.
وهنا، للمرة الأولى، اختفت ابتسامته.

الفصل الخامس: الصورة

في تلك الليلة، فتشت خديجة منزلها.
لم تبحث عن الملفات.
بحثت عن الماضي.

كانت لديها صناديق قديمة في أعلى الخزانة.
أخرجتها.
صور.
دفاتر.
أوراق الجامعة.
شهادات.
صحف قديمة.
ثم وجدتها.
الصورة.
وضعتها على الطاولة.
كانت هي في الصف الثاني.
تبتسم.
بجانبها زميلاتها.
وفي الخلف، يقف الرجل.
نفس الوجه.
لكن أصغر بعشرين عامًا.
قلبت الصورة.
كان هناك تاريخ مكتوب بخط يدها.
12نوفمبر.
ثم جملة قصيرة:
»اليوم الذي تغير فيه كل شيء«.
تراجعت.
لم تتذكر أنها كتبتها.
أعادت قراءة الجملة.
وفجأة عاد شيء من الماضي.
قاعة صغيرة.
أستاذ يتحدث.
طالب يرفع يده.
جدال.
ثم دخول رجل إلى القاعة.
تذكرت وجهه.
وتذكرت أنه قال لها يومها:
ـــلا تنشري هذا.
قالتها ذاكرتها قبل أن تتذكر السبب.
وضعت يدها على فمها.

لقد كانت هناك قصة.
قصة قديمة.
وقد تكون هي أصل كل ما يحدث الآن.

الفصل السادس: الطَرق الثالث

في الثانية بعد منتصف الليل، سمعَت خديجة طرقًا على الباب.
ثلاث طرق.
توقفت.
ثم جاء الطرق مرة أخرى.
ثلاث طرق.
لم تتحرك.
جاء صوت من الخارج:
ـــخديجة.
لم يكن صوت أخيها.
ولم يكن صوت أمها.
كان صوت الرجل من المقهى.
فتحت الباب ببطء.
كان واقفًا في الظلام.
قال:
ـــلدينا وقت قليل.
ـــكيف وصلت إلى هنا؟
ـــهذا ليس السؤال المهم.
ـــماذا تريد؟
نظر خلفه.
ثم قال:
ـــأريد أن تعرفي الحقيقة قبل أن يعرفها الشخص الذي يبحث عنها.
ـــومن هو؟
أجاب:
ـــأنتِ.
ارتبكت.
ـــماذا؟
قال:
ـــأنتِ لا تتذكرين ما فعلتِه قبل سنوات.
ثم أضاف:
ـــوأنا جئت لأساعدك على التذكر.

أغلقَت خديجة الباب خلفه.
وفي اللحظة نفسها، انطفأت الكهرباء في الحي كله.
غرق المنزل في الظلام.
قال الرجل:
ـــلا تشعلي الضوء.
ـــلماذا؟
جاء صوته قريبًا:
ـــلأننا لسنا وحدنا.
ثم سمعا صوت شيء ارتطم بالأرض خارج المنزل.
اقتربت خديجة من النافذة.
أرادت أن تنظر.
لكن الرجل أمسك بيدها.
ـــلا.
ـــلماذا؟
قال بصوت خافت:
ـــلأنكِ إذا رأيتِ من يقف هناك، فلن تعودي قادرة على إقناع نفسك بأن ما يحدث لكِ مجرد مصادفة.
وبقي الاثنان في الظلام.
وخارج البيت...
كان هناك شخص ينتظر.
شخص يعرف اسم خديجة.
ويعرف ماضيها.
ويعرف السر الذي نسيته هي.
لكن السؤال الذي لم يكن أي منهما يعرف إجابته بعد كان أبسط وأخطر:
لماذا تركها ذلك الشخص تتذكر الآن؟

القسم التالي: الذاكرة التي كذبت

الفصل الأول: قبل أن يأتي الصباح

لم تنم خديجة تلك الليلة.

كانت تجلس في غرفة الجلوس، والظلام يملأ المكان إلا من ضوء شمعة صغيرة وضعها الرجل على الطاولة.

أما الرجل فكان واقفًا قرب النافذة.

قالت:

ـــما اسمك؟

أجاب بعد صمت:

ـــسامر.

ـــسامر ماذا؟

ابتسم.

ـــيكفي سامر الآن.

ـــأنت تعرف عني أكثر مما ينبغي.

ـــوأنت تعرفين عني أقل مما ينبغي.

لم يعجبها الجواب.

قالت:

ـــأريد الحقيقة.

استدار إليها.

ـــالحقيقة ليست بابًا تفتحينه فتجدينها جالسة في الداخل.

ـــإذن؟

ـــالحقيقة بيت قديم. كلما فتحتِ فيه غرفة، اكتشفتِ أن هناك غرفة أخرى خلفها.

سكتت.

ثم قالت:

ـــوما الغرفة الأولى؟

أجاب:

ـــالجامعة.

شعرت بقلبها يهبط.

كان يعرف أين يضع يده.

على الجرح القديم تحديدًا.

الفصل الثاني: ١٢ نوفمبر

مع أول ضوء للصباح، وضعت خديجة الصورة أمامها.

كانت الصورة لا تزال كما هي.

طلاب يبتسمون.

أستاذ يقف في المنتصف.
وفي الخلف، الرجل.
سامر.
لكنها لم تكن تعرفه يومها بهذا الاسم.
قالت:
ـــلماذا كنت هناك؟
أجاب:
ـــلأنني كنت أعمل مع المؤسسة التي كانت تموّل مشروعكم.
ـــأي مشروع؟
ـــمشروع التخرج.
نظرت إليه.
ـــمشروعنا كان عن الإعلام المحلي.
ـــلم يكن هذا هو الموضوع الحقيقي.
توقفت.
ـــماذا كان؟
اقترب من الصورة.
أشار إلى طالبة تقف بجانب خديجة.
ـــهل تتذكرينها؟
حدقت خديجة في الصورة.
كانت الطالبة تضحك.
اسمها ليان.
قالت:
ـــكانت صديقتي.
ـــكانت أكثر من ذلك.
ـــماذا تقصد؟
لم يجب.
أخرج من جيبه ورقة مطوية.
فتحها.
كانت صفحة من دفتر قديم.
وعليها بخط خديجة:
»ليان تقول إن هناك شيئًا لا يريدون لنا أن نراه«.
شهقت.
ـــهذا خطي.
ـــنعم.
ـــأين وجدت هذا؟

ـــفي مكان لم تبحثي فيه.
ـــأين؟
قال:
ـــعند ليان.
ثم سكت لحظة.
ـــلكنها لم تعد هناك.

الفصل الثالث: الباب المغلق

كانت شقة ليان تقع في شارع قديم، خلف سوق مزدحم.
ذهبت خديجة وحدها.
لم تخبر سامر.
ربما لأنها لم تثق به.
وربما لأنها بدأت تدرك أن الثقة أصبحت رفاهية لا تستطيع تحمل تكلفتها.
طرقت الباب.
لا جواب.
طرقت ثانية.
لا شيء.
سألت جارًا مسنًا:
ـــهل تعرف أين ذهبت صاحبة هذا المنزل؟
نظر إليها بحذر.
ـــمنذ سنوات لم أرها.
ـــهل تعرف أين تعيش الآن؟
هز رأسه.
ثم قال:
ـــلا تسألي عن ليان.
ـــلماذا؟
اقترب منها.
ـــلأن آخر امرأة سألت عنها جاءت بعد أيام تبحث عن نفسها.
لم تفهم.
لكن الرجل أغلق بابه.
بقيت خديجة في الممر.
ثم لاحظت شيئًا.
على الباب، تحت طبقة الطلاء، كان هناك أثر ورقة قديمة.
اقتربت.
كانت الكلمات بالكاد تُرى.

»إذا جئتِ تبحثين عني، فلا تدخلي«.
تراجعت.
لكن شيئًا في داخلها قال:
ادخلي.

الفصل الرابع: الغرفة التي لم تكن موجودة
لم يكن الباب مقفلًا.
دفعتْه.
دخلت.
الشقة خالية تقريبًا.
غرفة.
مطبخ.
ممر.
ثم غرفة صغيرة في النهاية.
كانت مغلقة.
وجدت المفتاح فوق إطار الباب.
فتحتها.
لم تكن غرفة عادية.
كانت مليئة بالملفات.
قصاصات صحف.
صور.
تسجيلات.
أسماء.
تواريخ.
وفي منتصف الجدار، خريطة كبيرة لصنعاء.
وعليها علامات حمراء.
اقتربت خديجة.
كان أحد الأحياء محددًا بدائرة كبيرة.
وتحتها تاريخ:
12نوفمبر.
تجمدت.
نفس التاريخ.
التاريخ الموجود على صورتها.
وبجانب الدائرة جملة:
»البداية لم تكن في الجامعة«.

سمعت صوتًا خلفها.
ـــكنت أعرف أنك ستأتين.
استدارت.
لم يكن سامر.
كانت امرأة.
في الخمسين تقريبًا.
شعرها أبيض عند الأطراف.
وعيناها تشبهان عيني شخص لم يعد يخاف من شيء.
قالت:
ـــأنتِ خديجة.
هذه المرة لم تسأل خديجة كيف عرفت اسمها.
قالت:
ـــأين ليان؟
أجابت المرأة:
ـــأنتِ تقفين في المكان الوحيد الذي تركت فيه ليان شيئًا منك.

الفصل الخامس: الشريط

وضعت المرأة جهاز تسجيل قديمًا على الطاولة.
قالت:
ـــاسمعي.
ضغطت الزر.
صدر صوت تشويش.
ثم صوت شاب.
ثم صوت امرأة.
ثم صوت خديجة.
سمعت نفسها وهي أصغر سنًا.
قالت في التسجيل:
ـــإذا كان ما نعرفه صحيحًا، فالأمر أكبر من مشروع تخرج.
ثم صوت ليان:
ـــلا تسجلي هذا.
صوت خديجة:
ـــلماذا؟
ـــلأنهم قد يسمعوننا.
ثم صمت.
بعده صوت طرق على الباب.

ثلاث طرق.
توقفت خديجة عن التنفس.
ثلاث طرق.
ثم جاء صوت رجل من خلف الباب.
صوت لم تتعرف إليه في البداية.
ثم عرفته.
كان صوت سامر.
قال في التسجيل:
ـــافتحوا الباب.
أوقفت خديجة التسجيل.
نهضت.
ـــكان هنا.
قالت المرأة:
ـــنعم.
ـــمنذ ذلك اليوم؟
ـــمنذ ذلك اليوم.
ـــوماذا حدث؟
لم تجب المرأة فورًا.
ثم قالت:
ـــحدث ما يحدث حين يكتشف أربعة أشخاص حقيقة لا ينبغي أن يعرفها أحد.
ـــماذا؟
قالت:
ـــأصبحوا ثلاثة.
سكتت خديجة.
ـــوالثالث؟
أجابت:
ـــاختفى.
ـــوالرابع؟
نظرت المرأة إليها.
ـــالرابع بقي.
شعرت خديجة ببرودة تسري في جسدها.
ـــمن هو الرابع؟
لم تجب المرأة.
كانت تنظر إليها فقط.

الفصل السادس: الحقيقة الأولى

خرجت خديجة من الشقة وهي تحمل نسخة من التسجيل.

لم تعرف ماذا تفعل.

كانت الشمس قد ارتفعت، والناس يمشون في الشارع، والسيارات تتحرك، وبائع الخبز يصرخ باسم بضاعته.

العالم مستمر.

كأن شيئًا لم يحدث.

وهذا ما أخافها.

اتصلت بسامر.

لم يجب.

اتصلت مرة ثانية.

الهاتف مغلق.

فتحت التسجيل مرة أخرى.

استمعت إلى الأصوات.

ثم لاحظت شيئًا لم تنتبه إليه في المرة الأولى.

قبل نهاية التسجيل بثوانٍ، كان هناك صوت خافت جدًا.

صوت امرأة.

لم يكن صوت ليان.

ولا صوت خديجة.

قالت:

—خديجة تعرف أين الملف.

ثم انقطع التسجيل.

توقفت.

أعادت المقطع.

سمعته مرة ثانية.

ثم ثالثة.

نفس الجملة.

خديجة تعرف أين الملف.

لكنها لم تكن تعرف.

أو هكذا كانت تظن.

عادت إلى منزلها.

فتحت خزانتها.

أخرجت الصندوق القديم.

بدأت تقلب أوراق الجامعة.

شهادات.

ملاحظات.
صور.
رسائل.
حتى وصلت إلى دفترها القديم.
فتحته.
كانت الصفحات مليئة بملاحظات لا تتذكر كتابتها.
وفي الصفحة الأخيرة وجدت جملة واحدة.
بخطها.
واضحة.
مرتبة.
كأنها كتبتها بالأمس:
»إذا نسيتُ كل شيء، فابحثي عن المفتاح في المكان الذي بدأ منه الخوف«.
وتحت الجملة رسم صغير.
مفتاح.
وبجانبه اسم واحد:
المنزل القديم.
رفعت خديجة رأسها.
فجأة فهمت.
لم تكن تبحث عن الحقيقة منذ أيام.
كانت الحقيقة تبحث عنها منذ سنوات.
وفي مكان ما من صنعاء، كان هناك شخص آخر يراقبها.
شخص يعرف أنها بدأت تتذكر.
وشخص يعرف أيضًا...
أنها لم تتذكر أخطر شيء بعد.

القسم التالي: البيت الذي حفظ السر

الفصل الأول: المنزل القديم

كان المنزل القديم يقع في طرف الحي، وراء جدار طويل أكل الرطوبة لونه.

لم تكن خديجة قد دخلته منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.

ومع ذلك، حين وقفت أمام بابه، شعرت أن البيت يتذكرها.

بعض الأماكن لا تحتاج إلى أن تراها طويلًا كي تعرف أنك عدت إليها.

يكفي أن تشم رائحة التراب.

أن تسمع صرير الباب.

أن ترى نافذة كنت تطل منها طفلة، فتتذكر فجأة أنك لم تكوني طفلة سعيدة تمامًا كما كنت تظنين.

دفعت الباب.

لم يكن مقفلًا.

دخلت.

كان الغبار يغطي الأثاث القديم.

على الجدار صورة عائلية باهتة.

أمها.

أبوها.

هي.

وأخوها.

وقفت أمام الصورة طويلًا.

كان أبوها يبتسم.

لكنها تذكرت شيئًا غريبًا.

في الصورة، كان الجميع ينظر إلى الكاميرا.

إلا والدها.

كان ينظر إلى مكان آخر.

كأنه كان يرى شخصًا يقف خارج إطار الصورة.

اقتربت خديجة.

ثم لاحظت خلف الصورة ورقة صغيرة.

نزعتها.

كان عليها رقم.

فقط رقم:

17

لم تفهم.

بحثت في الغرفة.

ثم تذكرت.

كان في المنزل صندوق خشبي قديم يحمل أرقامًا صغيرة.

فتحته.
كانت الأدراج مرقمة.
وصلت إلى الرقم ١٧.
فتحته.
فارغ.
ظلت تحدق فيه.
ثم رأت شيئًا عالقًا في الزاوية.
مفتاح صغير.
وعليه ورقة:
»ليس كل باب يُفتح بالمفتاح«.

الفصل الثاني: الأب
جلست خديجة على الأرض.
بدأت تتذكر.
والدها لم يكن رجلًا مهمًا.
كان موظفًا عاديًا.
يخرج صباحًا.
يعود مساءً.
يجلس إلى المائدة.
يسأل عن الدراسة.
ويغضب حين تتأخر عن المنزل.
لكن كانت هناك أيام لم يكن يعود فيها في موعده.
وأيام كان يدخل فيها صامتًا.
وأيام كانت أمها تغلق باب الغرفة وتتحدث معه بصوت منخفض.
كانت خديجة الصغيرة تظن أن الأمر يتعلق بالعمل.
الآن فقط فهمت أن الأطفال لا يخطئون في ملاحظة الخوف.
إنهم فقط لا يملكون الكلمات التي تصفه.
فتشت في غرفة والدها.
وجدت دفترًا قديمًا.
كان معظم صفحاته فارغًا.
لكن في الصفحة السابعة عشرة وجدَت شيئًا.
جملة واحدة:
»المشكلة ليست فيمن سرق الحقيقة، بل فيمن جعل الناس يعتقدون أنها لا تستحق أن تُعرف«.
وتحتها توقيع أبيها.
لم تستطع منع دموعها.

قالت بصوت خافت:
ـــماذا كنت تعرف يا أبي؟

الفصل الثالث: الضيف

في تلك اللحظة، سمعت صوت الباب.
تجمدت.
لم يكن معها أحد.
خطوات بطيئة في الممر.
ثم توقف الصوت أمام الغرفة.
قال رجل:
ـــلا تخافي.
لم يكن صوت سامر.
فتحت خديجة الدرج وأخفت الدفتر.
دخل رجل في الستين تقريبًا.
كان يحمل عصًا.
قال:
ـــكنت أعرف أن أحدًا سيعود إلى هذا البيت.
ـــمن أنت؟
ـــكنت صديق والدك.
ـــلماذا لم أعرفك؟
ابتسم بحزن.
ـــلأن والدك لم يكن يريدك أن تعرفيني.
ـــتعرفني؟
ـــيعرف أن بعض الحقائق إذا عرفها الأبناء، ورثوا خوف الآباء معها.
قالت:
ـــماذا حدث لأبي؟
نظر الرجل إلى الصورة.
ـــأبوك لم يمت بسبب المرض كما قيل لكم.
سقط الصمت.
لم تستطع خديجة الكلام.
قال الرجل:
ـــكان يعرف شيئًا.
ـــماذا؟
ـــأسماء.
ـــأسماء من؟

أجاب:
ـــالأشخاص الذين اختفوا من الملفات.
رفعت خديجة رأسها.
قال الرجل:
ـــوأبوك لم يكن وحده.

الفصل الرابع: الحقيقة التي لها ثمن

جلس الرجل.
وقال:
ـــفي ذلك الوقت، كان هناك ملف يجمع شكاوى موظفين وعائلات وأشخاصًا لم يجدوا مكانًا آخر يذهبون إليه.
ـــومن كان يجمعه؟
ـــوالدك.
ـــوليان؟
هز رأسه.
ـــليان جاءت بعده.
ـــوسامر؟
صمت الرجل.
ثم قال:
ـــسامر لم يكن معنا.
ـــإذن من كان؟
نظر إليها.
ـــلا تسألي عن سامر الآن.
ـــلماذا؟
ـــلأنك إذا عرفتِ من كان يعمل معه في البداية، ستفهمين لماذا بقي قريبًا منك كل هذه السنوات.
تراجعت خديجة.
ـــقريبًا مني؟
ـــأكثر مما تتصورين.
ثم أخرج من جيبه صورة صغيرة.
وضعها أمامها.
كانت صورة قديمة.
والدها يقف إلى جانب رجل آخر.
نظرت خديجة إلى الرجل الآخر.
ثم شهقت.
كان والد سامر.

الفصل الخامس: الخيانة

لم يكن الأمر منطقيًا.

أو ربما كان منطقيًا أكثر مما تحتمل.

قالت:

ـــماذا كان والد سامر يفعل مع أبي؟

ـــكانا يعملان معًا.

ـــفي ماذا؟

ـــفي جمع الشهادات.

ـــثم ماذا حدث؟

قال الرجل:

ـــاختلفا.

ـــلماذا؟

ـــلأن أباك أراد نشر كل شيء.

ـــووالد سامر؟

ـــأراد حماية بعض الأسماء.

ـــلماذا؟

ـــلأنه كان يخشى أن يؤدي كشفها إلى انهيار أشياء أكبر.

نظرت إليه خديجة.

ـــوهل كان مخطئًا؟

أجاب:

ـــلا أعرف.

ثم أضاف:

ـــوهذه هي المشكلة مع الأسرار الكبيرة. نادرًا ما يكون فيها شخص واحد شريرًا وشخص واحد بريئًا.

صمت قليلًا.

ـــأحيانًا يكون الجميع يعتقدون أنهم يفعلون الشيء الصحيح.

قالت خديجة:

ـــثم ماذا حدث؟

أجاب:

ـــاختفى الملف.

ـــومن أخذه؟

نظر إليها.

ـــأبوك.

ارتجفت.

ـــأبي؟
ـــنعم.
ـــلماذا؟
قال:
ـــلأنه اكتشف أن شخصًا من داخل المجموعة كان يسرّب المعلومات.
ـــمن؟
لم يجب.
قالت:
ـــمن؟
رفع الرجل عينيه إليها.
ـــكنتِ أنتِ آخر شخص رأى الملف قبل اختفائه.
شعرت خديجة أن الأرض ابتعدت عنها.
ـــهذا مستحيل.
ـــكنتِ في السابعة عشرة.
ـــلم أكن أعرف شيئًا.
ـــربما.
ـــإذن لماذا تقول إنني رأيته؟
أجاب بهدوء:
ـــلأن أباك أخفى النسخة الأخيرة في مكان لم يفتش فيه أحد.
ـــأين؟
نظر إلى الغرفة.
ثم إلى الصورة العائلية.
وقال:
ـــعند الشخص الذي لم يشك فيه أحد.

الفصل السادس: الهاتف

رن هاتف خديجة.
رقم مجهول.
نظرت إلى الرجل.
قال:
ـــأجيبي.
ضغطت زر الاتصال.
لم تتكلم.
جاء صوت من الطرف الآخر.
صوت امرأة.

هادئ.
قديم.
ومألوف.
قالت:
ـــخديجة؟
لم تستطع الرد.
عاد الصوت:
ـــكنت أعرف أنك ستصلين إلى هناك.
توقفت أنفاسها.
قالت:
ـــليان؟
ضحكت المرأة ضحكة صغيرة.
ثم قالت:
ـــتأخرتِ كثيرًا.
انقطع الاتصال.
بقي الهاتف في يد خديجة.
رفعت عينيها إلى الرجل.
كان وجهه شاحبًا.
قالت:
ـــإنها حية.
أجاب:
ـــنعم.
ـــمنذ متى؟
ـــمنذ خمسة عشر عامًا.
ـــولماذا اختفت؟
لم يجب.
صرخت:
ـــلماذا اختفت؟
قال الرجل:
ـــلأنها اكتشفت من سرّب الملف.
ثم سكت.
ـــومن كان؟
نظر إليها مباشرة.
وقال:
ـــلم تكن ليان.

توقفت خديجة.
ثم أدركت شيئًا.
الصوت الذي سمعته في التسجيل القديم...
الصوت الذي قال:
»خديجة تعرف أين الملف«.
لم يكن صوت ليان.
ولم يكن صوت سامر.
كان صوتًا تعرفه.
صوتًا سمعته طوال حياتها.
صوت شخص كانت تثق به أكثر من أي شخص آخر.
صوت أمها.
رفعت خديجة رأسها ببطء.
وفي تلك اللحظة، فهمت لماذا كان أبوها ينظر بعيدًا في الصورة.
لم يكن يخشى الرجل خلف الكاميرا.
كان يخشى الشخص الذي يقف بجانبه.
والأخطر من ذلك كله...
أن أمها كانت تعرف منذ البداية أين اختفى الملف.

القسم التالي: الرجل الذي كان يعرف أكثر مما ينبغي

الفصل الأول: الرسالة التي لم تُرسل

لم تنم خديجة تلك الليلة.

كانت صنعاء في الخارج ساكنة على نحو يثير الريبة.

فالمدينة التي اعتادت أن تستيقظ على أصوات الباعة، وأبواق السيارات، وخطوات الناس المتعجلة، بدت كأنها تحبس أنفاسها.

جلست خديجة قرب النافذة، وأمامها كوب شاي برد منذ وقت طويل.

كانت تفكر في الرجل الذي رأته للمرة الثالثة.

لم يكن غريبًا عنها تمامًا.

وهذه هي المشكلة.

الغريب يستطيع الإنسان أن يخاف منه، ثم ينساه.

أما الوجه الذي تشعر أنك رأيته في مكان ما، ولا تستطيع أن تتذكر أين، فإنه يظل يطاردك حتى وأنت نائم.

أخرجت الورقة التي وجدتها في حقيبتها.

لم يكن فيها سوى سطر واحد:

»أنتِ تبحثين عن الحقيقة الخطأ«.

قلبتها.

لا شيء.

ثم أعادتها إلى الطاولة.

قالت لنفسها:

—ربما يريد إخافتي.

لكن صوتًا آخر في داخلها أجاب:

—ولو كان يريد إخافتك، لكتب شيئًا أكثر وضوحًا.

ابتسمت بسخرية.

منذ متى أصبحت الرسائل الغامضة تخيفها؟

منذ اليوم الذي اكتشفت فيه أن بعض الناس لا يخافون من الحقيقة نفسها، وإنما يخافون ممن يعرفها.

الفصل الثاني: المقعد الأخير

في صباح اليوم التالي، ذهبت خديجة إلى عملها كالمعتاد.

أو حاولت أن يبدو الأمر كذلك.

دخلت المبنى، ألقت التحية على زملائها، وضعت حقيبتها على مكتبها، وفتحت الحاسوب.

كل شيء كان طبيعيًا.

وهذا ما جعلها تشعر بأن شيئًا غير طبيعي يحدث.

كانت تعرف أن الخطر الحقيقي لا يأتي دائمًا على هيئة رجل يطرق الباب في منتصف الليل.

أحيانًا يأتي في صورة ابتسامة زميل.
أحيانًا في مكالمة صامتة.
وأحيانًا في شخص يجلس في آخر القاعة ولا ينظر إليك أبدًا.
رفعت عينيها.
كان المقعد الأخير مشغولًا.
رجل في الخمسين تقريبًا، يرتدي معطفًا رماديًا، ويقرأ صحيفة قديمة.
لم تره من قبل.
لكنها لم تكن متأكدة.
اقتربت منه.
قالت:
ـــهل تبحث عن أحد؟
رفع الرجل عينيه إليها.
وكانت عيناه هادئتين بصورة أزعجتها أكثر من الغضب.
قال:
ـــلا.
ـــإذن لماذا أنت هنا؟
طوى الصحيفة بعناية.
ـــلأنني كنت أنتظرك.
شعرت خديجة ببرودة تسري في أطرافها.
ـــمن أنت؟
ابتسم.
ـــالسؤال الأهم: من أنتِ؟
قالت بحدة:
ـــأنا أعرف من أنا.
ـــلا.
ثم أضاف:
ـــأنتِ تعرفين الاسم الذي تحملينه. وهذا ليس الشيء نفسه.
وقبل أن تستطيع الرد، نهض الرجل وغادر.
ظلت تنظر إلى الباب.
وعندما عادت إلى مكتبها، وجدت ظرفًا أبيض تحت لوحة المفاتيح.
لم يكن عليه اسم.
فتحت الظرف.
في داخله صورة.
صورة قديمة.
صنعاء.

ومجموعة من الرجال يقفون أمام مبنى حكومي.
لكن خديجة لم تنظر إلى الرجال.
كانت تنظر إلى المرأة الموجودة في الخلف.
امرأة تحمل طفلة صغيرة.
قلبت الصورة.
وعلى ظهرها كُتبت عبارة:
»اسألي أمك عن هذه الليلة«.

الفصل الثالث: الاسم الذي لم يكن ينبغي أن يظهر

لم تتصل خديجة بأمها.
لم تستطع.
كانت تعرف أن السؤال البسيط قد يفتح بابًا حاولت أمها إغلاقه سنوات طويلة.
لكن شيئًا واحدًا ظل يزعجها.
المرأة في الصورة.
كانت تشبه أمها.
ليس الشبه الذي يمكن أن تراه في الصور العائلية، وإنما ذلك الشبه الغريب الذي يجعل الذاكرة تستيقظ قبل العقل.
فتحت خديجة صندوق الصور القديم.
بدأت تقلب الصور واحدة تلو الأخرى.
حفلات المدرسة.
أعياد.
زفاف.
رحلات عائلية.
ثم وجدت صورة لأمها وهي في العشرينات.
توقفت.
نظرت إلى الصورة القديمة التي في يدها.
ثم إلى صورة أمها.
كان الفستان مختلفًا.
والشعر مختلفًا.
لكن الوجه...
كان الوجه نفسه.
همست:
ـــلماذا لم تخبريني؟
جاءها صوت أمها من خلفها:
ـــلأنك لم تسألي.

استدارت خديجة.
كانت أمها واقفة عند الباب.
لم تكن غاضبة.
وهذا أخاف خديجة أكثر.
قالت:
ـــمن هذه؟
لم تجب الأم.
ـــأمي، من هذه؟
اقتربت المرأة العجوز ببطء.
أخذت الصورة.
وظلت تنظر إليها طويلًا.
ثم قالت:
ـــبعض الأشياء يا خديجة لا تموت لأنها دُفنت... بل لأنها وجدت من يحرس قبرها.
ـــماذا يعني هذا؟
جلست الأم.
وكان واضحًا أن السنوات كلها قد جلست معها على ذلك الكرسي.
قالت:
ـــالرجل الذي أعطاك الصورة؟
تجمدت خديجة.
ـــكيف عرفتِ؟
رفعت أمها رأسها.
ـــلأنه عاد.
ـــمن؟
سكتت لحظة.
ثم قالت:
ـــالشخص الذي ظننا أنه مات.

الفصل الرابع: الرجل الثالث

في تلك الليلة، أدركت خديجة شيئًا لم تدركه من قبل.
لم تكن وحدها في هذه القصة.
كان هناك ثلاثة أشخاص على الأقل يعرفون الحقيقة.
أمها.
الرجل الغامض.
وشخص ثالث لم تعرف اسمه بعد.
وفي الصباح، وصلتها رسالة على هاتفها من رقم مجهول:

»لا تثقي بمن يخبرك نصف الحقيقة«.
حدقت في الشاشة.
ثم وصلت رسالة ثانية:
»ولا بمن يطلب منك أن تخافي«.
وثالثة:
»وابدئي من المكان الذي بدأت منه الحكاية«.
ثم اختفى الرقم.
وضعت الهاتف على الطاولة.
كانت تعرف المكان.
لم تكن بحاجة إلى التفكير.
المكان الذي بدأت منه الحكاية لم يكن مكتبًا.
ولا بيتًا.
ولا مؤسسة.
كان بيتًا صغيرًا في أحد أحياء صنعاء.
البيت الذي عاشت فيه طفولتها.
والبيت الذي كانت أمها ترفض الحديث عنه.

الفصل الخامس: الباب الأزرق
ذهبت خديجة إلى البيت القديم قبل الغروب.
كان الباب الأزرق ما يزال هناك.
لم تفهم لماذا احتفظت أمها بالمفتاح طوال تلك السنوات.
أدخلته في القفل.
دار المفتاح.
صدر صوت معدني خافت.
ثم انفتح الباب.
رائحة الغبار استقبلتها أولًا.
وبعدها الصمت.
دخلت.
كانت الغرف أصغر مما تتذكر.
أو ربما كانت هي التي كبرت.
مرت يدها على الجدار.
هنا كانت أمها تضع المائدة.
وهناك كانت تنام.
وفي الزاوية كانت تقف آلة الراديو القديمة التي كانت تستمع إليها في طفولتها.
لكن شيئًا واحدًا لم يكن في ذاكرتها.

باب صغير خلف المكتبة.
اقتربت منه.
حاولت فتحه.
مغلق.
بحثت في حقيبتها.
ثم تذكرت.
المفتاح الذي وجدته قبل أسابيع بين أوراق والدها.
ذلك المفتاح الذي لم تعرف له بابًا.
أخرجته.
أدخلته في القفل.
دار.
فتح الباب.
كانت الغرفة مظلمة.
أشعلت مصباح هاتفها.
لم تكن الغرفة مخزنًا.
كانت أرشيفًا.
صناديق.
ملفات.
صور.
أشرطة تسجيل.
وعدد كبير من الأوراق القديمة.
مدت يدها إلى أول صندوق.
وجدت عليه اسم واحد:
خديجة.
تراجعت خطوة.
ثم جلست على الأرض.
لم يعد السؤال:
ماذا حدث لأمها؟
بل أصبح:
ماذا حدث لها هي؟

الفصل السادس: التسجيل
وجدت جهاز تسجيل قديمًا.
وضعت شريطًا بداخله.
ضغطت الزر.

صدر تشويش طويل.
ثم جاء صوت رجل.
صوت هادئ.
متردد.
لكنه مألوف.
قال:
ـــإذا وصلتِ إلى هذا التسجيل، فهذا يعني أنني لم أستطع حمايتك.
توقفت خديجة عن التنفس تقريبًا.
الصوت كان صوت والدها.
تابع:
ـــوربما يعني أيضًا أن الوقت الذي أخشاه قد جاء.
ثم صمت.
قال:
ـــخديجة... هناك أشياء قيل لك إنها حدثت، وأشياء قيل لك إنها لم تحدث.
تشويش.
ثم:
ـــلكن الحقيقة ليست بين الروايتين.
رفعت خديجة يدها إلى فمها.
كان والدها قد مات منذ سنوات.
ومع ذلك، كان يتحدث إليها الآن.
قال:
ـــإذا كنتِ تسمعين هذا، فلا تبحثي عن الرجل الذي يطاردك.
توقف التسجيل لحظة.
ثم جاء صوته أكثر انخفاضًا:
ـــابحثي عن المرأة التي تحاول حمايتك منه.
انقطع الصوت.
حدقت خديجة في الجهاز.
ثم سمعت خلفها صوت الباب.
أغلقت عينيها.
لم تجرؤ على الالتفات.
جاء صوت الرجل الغامض من الظلام:
ـــالآن فقط بدأتِ تفهمين.
استدارت.
كان واقفًا عند الباب.
لكن هذه المرة لم يكن وحده.

كانت أمها تقف خلفه.
ولأول مرة في حياتها، رأت خديجة الخوف في عيني أمها.
ليس خوف امرأة على ابنتها.
بل خوف امرأة تعرف أن السر الذي دفنته طويلًا قد خرج من قبره.
قالت خديجة:
ـــأمي... من هذا الرجل؟
نظرت الأم إليه.
ثم إلى ابنتها.
وقالت:
ـــإنه والدك.
ساد الصمت.
وفي تلك اللحظة فقط فهمت خديجة أن الموت، في بعض الحكايات، ليس نهاية الإنسان.
بل بداية الكذبة.

القسم التالي: مالك والباب الذي لم يُفتح

الفصل الأول: الرجل الذي مات مرتين

ظلّت خديجة تنظر إلى الرجل الواقف عند الباب.

كان وجهه شاحبًا، لكنه لم يكن وجه رجل عاد من الموت.

كان وجه رجل عاد من شيء أشد قسوة.

قالت:

ـــأبي مات.

لم يجب.

رفعت صوتها:

ـــرأيته يُدفن.

قال الرجل:

ـــرأيتِ ما أرادوا لكِ أن تريه.

تراجعت خديجة.

أما أمها فبقيت صامتة.

وهنا فهمت خديجة أن صمتها لم يعد حماية.

لقد صار اعترافًا.

قالت:

ـــمن أنت؟

نظر الرجل إلى أمها.

ثم قال:

ـــاسمي مالك.

تجمدت الأم.

كان وقع الاسم عليها أشد من وقع ظهوره.

قالت خديجة:

ـــمالك؟

أجاب:

ـــنعم.

ثم أضاف:

ـــوأنا لست أباك.

تنفست خديجة للمرة الأولى.

لكن الرجل تابع:

ـــوأنا أيضًا لم أقل إن أباك مات.

التفتت خديجة إلى أمها.

ـــماذا يحدث هنا؟

قالت الأم بصوت متعب:

ـــاجلسي.
ـــلا أريد أن أجلس!
ارتجف صوتها.
ـــأريد الحقيقة.
قال مالك:
ـــالحقيقة ليست كلمة يا خديجة. أحيانًا تكون سلسلة من الأبواب. وكل باب تفتحينه يغلق خلفك بابًا آخر.
ردت:
ـــوأنا تعبت من الأبواب.
ابتسم مالك بحزن.
ـــلهذا السبب تحديدًا جئت.

الفصل الثاني: دفتر الأب

وضع مالك صندوقًا صغيرًا على الطاولة.
كان خشبيًا، قديمًا، ومغلقًا بقفل نحاسي.
قال:
ـــهذا تركه والدك.
حدقت خديجة فيه.
ـــلماذا عندك؟
ـــلأنه طلب مني أن أحفظه.
ـــمنذ متى؟
ـــمنذ خمسة عشر عامًا.
اقتربت.
ـــولماذا تعطيني إياه الآن؟
قال مالك:
ـــلأن الرجل الذي كان يبحث عنه والدك بدأ يبحث عنك.
سألته:
ـــمن هو؟
لم يجب.
فتح الصندوق.
في داخله دفتر أسود.
لم يكن كبيرًا.
لكن الصفحات كانت ممتلئة بخط يد أبيها.
أخذته خديجة.
في الصفحة الأولى جملة واحدة:

»إلى خديجة، عندما تصبح الحقيقة أخطر من الصمت«.

أغلقت عينيها.

كان خط أبيها.

لم يكن هناك شك.

قلبت الصفحة.

وجدت أسماء.

تواريخ.

أماكن.

مبالغ مالية.

ثم كلمة تكررت مرات كثيرة:

الملف.

قالت:

ـــما هذا؟

قال مالك:

ـــسجل لما حدث.

ـــماذا حدث؟

نظر إليها طويلًا.

ـــشيء بدأ كخطأ صغير، ثم تحول إلى شبكة من الخوف.

سألت:

ـــوهل كنت جزءًا منها؟

ساد الصمت.

قال مالك:

ـــكنت أحاول تفكيكها.

ضحكت خديجة بمرارة.

ـــهذه إجابة شخص يخفي شيئًا.

قال:

ـــوأنتِ أصبحتِ صحفية الآن.

ـــماذا تقصد؟

ـــأقصد أنك تعلمتِ أن أخطر الإجابات هي التي تبدو كاملة.

الفصل الثالث: الاسم الثالث

قلبت خديجة الصفحات بسرعة.

وفجأة توقفت.

كان هناك اسم محاط بدائرة.

سالم.

سألت:
ـــمن سالم؟
لم يجب مالك.
نظرت إلى أمها.
خفضت الأم عينيها.
قالت خديجة:
ـــأريد أن أعرف.
قال مالك:
ـــسالم لم يكن موظفًا كبيرًا ولا رجلًا مشهورًا.
ـــإذن من كان؟
ـــكان موظفًا عاديًا.
ـــوماذا فعل؟
ـــتكلم.
ضحكت خديجة.
ـــهل أصبح الكلام جريمة؟
قال مالك:
ـــليس الكلام.
ثم نظر إلى الدفتر.
ـــما تقوله بعد أن يعرف الناس أنك قلته.
صمت قليلًا.
ثم تابع:
ـــسالم اكتشف شيئًا يتعلق بأموال موظفين لم تصل إليهم. حاول أن يسأل. ثم حاول أن يشتكي.
ثم اختفى.
قالت خديجة:
ـــوماذا حدث له؟
ـــلا أحد يعرف.
لكنها لاحظت شيئًا.
كان مالك يتجنب النظر إليها.
قالت:
ـــأنت تعرف.
رفع عينيه.
ـــنعم.
ـــأين هو؟
قال مالك:
ـــكان حيًا عندما رأيته آخر مرة.

ـــومتى كان ذلك؟
ـــقبل ثلاثة أيام.
ساد الصمت.
قالت خديجة:
ـــثلاثة أيام؟
أومأ.
ـــوهذا يعني...
قال مالك:
ـــأنه ربما لا يزال حيًا.

الفصل الرابع: المكالمة

رن هاتف خديجة.
رقم مجهول.
نظرت إلى مالك.
قال:
ـــلا تجيبي.
سألته:
ـــلماذا؟
ـــلأنهم يعرفون أننا هنا.
رن الهاتف مرة أخرى.
ثم توقف.
بعد ثوانٍ وصلت رسالة:
»مالك كذب عليك«.
تغير وجهها.
نظرت إليه.
ـــلماذا قالوا ذلك؟
أجاب:
ـــلأنهم يريدونك أن تشكي بي.
ـــوهل أكذب عليك؟
ـــلا أعرف.
قالت:
ـــلكنك تعرف.
لم يجب.
فتحت الرسالة التالية.
»اسأليه عن ليلة المطار«.

رفعت عينيها.
ـــما هي ليلة المطار؟
للمرة الأولى، ظهر الاضطراب على وجه مالك.
قالت:
ـــمالك؟
ظل صامتًا.
فصرخت:
ـــما الذي حدث في المطار؟
قالت أمها:
ـــلا تسأليه.
استدارت إليها خديجة.
ـــلماذا؟
قالت الأم:
ـــلأنك إذا عرفتِ، فلن تعودي قادرة على العودة إلى حياتك القديمة.
أجابتها خديجة:
ـــأمي، حياتي القديمة انتهت منذ اللحظة التي قلتِ فيها إن أبي ربما لم يمت.

الفصل الخامس: ليلة المطار

خرجوا من البيت بعد منتصف الليل.
كانت صنعاء باردة.
الطرقات شبه خالية.
جلس مالك خلف المقود، بينما كانت خديجة إلى جواره.
لم تتحدث معه طوال الطريق.
حتى وصلوا إلى مبنى قديم.
قال:
ـــهنا بدأت الحكاية.
نظرت إليه.
ـــالمطار؟
أجاب:
ـــليس المطار نفسه.
وأشار إلى مبنى مهجور بالقرب منه.
دخلا.
كانت الجدران متآكلة.
في الداخل غرفة صغيرة.
وضع مالك مصباحًا على الطاولة.

ثم قال:
ـــفي تلك الليلة، كان والدك سيغادر.
ـــلماذا؟
ـــلأنه اكتشف أن الملف الذي بحوزته لم يكن مجرد ملف فساد.
سألته:
ـــماذا كان؟
نظر إليها.
ـــكان يحتوي أسماء أشخاص.
ـــأي أشخاص؟
ـــأشخاصًا لا يريد أحد أن يعرف أنهم التقوا ببعضهم.
فتحت الدفتر.
وجدت الصفحة الأخيرة.
كان فيها اسم واحد.
خديجة.
حدقت فيه.
ـــاسمي؟
قال مالك:
ـــنعم.
ـــلكنني كنت طفلة.
ـــلهذا السبب تحديدًا.
ثم أضاف:
ـــوالدك لم يكن يحاول إنقاذ نفسه.
توقفت.
ـــكان يحاول إنقاذك.

الفصل السادس: الصورة الأخيرة
أخرج مالك صورة من جيبه.
وضعها أمامها.
نظرت خديجة.
كانت الصورة لها.
لكنها لم تكن طفلة كما في الصور العائلية.
كانت أصغر.
ربما في الثالثة من عمرها.
وكانت واقفة بجوار والدها.
لكن خلفهما وقف رجل آخر.

رجل لم تعرفه.
قالت:
ـــمن هذا؟
قال مالك:
ـــهذا هو الرجل الذي تبحثين عنه.
ـــمن يكون؟
اقترب مالك من الصورة.
وقال:
ـــالشخص الذي كان والدك يظنه صديقًا.
سكت قليلًا.
ثم أضاف:
ـــوكان آخر شخص رآه قبل اختفائه.
قلبت خديجة الصورة.
كان على ظهرها تاريخ.
ثم جملة بخط والدها:
»إذا وصلت الصورة إلى ابنتي، فلا تثق بمن يقول إنني مت«.
رفعت خديجة رأسها.
لكن مالك لم يكن أمامها.
اختفى.
خرجت إلى الممر.
نادته.
لا جواب.
ثم سمعت صوتًا خلفها.
صوتًا تعرفه.
صوت أمها.
ـــخديجة...
استدارت.
كانت أمها واقفة عند الباب.
وفي يدها هاتف.
قالت:
ـــمالك لم يختفِ.
ـــأين هو؟
قالت الأم:
ـــخرج ليقابل الرجل الذي كان يلاحقنا طوال هذه السنوات.
سألت خديجة:

ـــومن هو؟
نظرت أمها إليها.
وقالت:
ـــالرجل الذي كنتِ تنادينه وأنتِ طفلة ...**عمي**.
ثم انطفأ المصباح.
وفي الظلام، رن هاتف خديجة.
رسالة واحدة فقط:
»إذا أردتِ أن تعرفي أين أبوك، تعالي وحدك«.
ولأول مرة منذ بدأت الحكاية، لم تشعر خديجة بالخوف.
شعرت بالغضب.
والغضب، حين يخرج من سنوات طويلة من الصمت، لا يعرف كيف يعود إلى مكانه.
وضعت الهاتف في جيبها.
ثم قالت:
ـــهذه المرة... أنا التي سأختار الباب.
وكانت لا تعرف أن خلف الباب التالي، لم تكن تنتظرها إجابة.
بل الحقيقة التي ستجبرها على إعادة قراءة كل شيء ظنّت أنها تعرفه عن أبيها، وأمها، ومالك، وعن نفسها.

القسم التالي: البحث عن الأب

الفصل الأول: لا تذهبي وحدك

ظلت خديجة واقفة في الظلام.

الهاتف في يدها.

والرسالة على شاشته.

»إذا أردتِ أن تعرفي أين أبوك، تعالي وحدك«.

قرأتها مرة.

ثم ثانية.

وفي المرة الثالثة لم تعد تقرأ الكلمات، بل ما وراءها.

كان صاحب الرسالة يعرف أنها ستأتي.

ويعرف أنها ستخاف.

ويعرف أيضًا أنها لن تستطيع مقاومة السؤال.

أين أبي؟

كان السؤال الذي عاش في داخلها سنوات طويلة دون أن تجد له قبرًا أو جوابًا.

اقتربت أمها منها.

قالت:

ـــ لا تذهبي.

رفعت خديجة عينيها.

ـــ لماذا؟

ـــ لأن من أخذ أباك لن يعيدك إليه بسهولة.

ـــ ومن قال إنه أخذه؟

صمتت الأم.

فهمت خديجة.

قالت:

ـــ أنت تعرفين.

ـــ أعرف ما يكفي لأخاف.

ـــ وأنا أعرف ما يكفي لأذهب.

أمسكت الأم بذراعها.

ـــ خديجة.

التفتت إليها.

كانت عينا أمها ممتلئتين بشيء لم تره فيهما من قبل.

ليس الخوف.

بل الندم.

قالت الأم:

ـــ إذا ذهبتِ، فلا تثقي بأحد.

أجابت خديجة:
ـــحتى أنت؟
لم تجب.
وكان صمتها أقسى من أي جواب.

الفصل الثاني: العنوان القديم
كانت الرسالة تحمل عنوانًا.
مبنى قديم في طرف المدينة.
مكانًا لم تسمع به خديجة من قبل.
استقلت سيارة أجرة.
جلست في المقعد الخلفي، تراقب الشوارع من النافذة.
كانت صنعاء تمر أمامها ككتاب مفتوح، لكن صفحات كثيرة منه اقتُلعت.
بيوت قديمة.
محال أغلقت أبوابها.
وجوه متعبة.
أطفال يمشون في الأزقة وهم يحملون ما هو أكبر من أعمارهم.
تساءلت:
كم من الناس هنا يعيشون حياة لا يعرف عنها أحد شيئًا؟
ثم فكرت في أبيها.
ربما لم تكن قصته استثناءً.
ربما كانت واحدة من مئات القصص التي تعلمت المدينة أن تدفنها دون جنازة.
وصلت إلى العنوان.
كان المبنى مهجورًا إلا من حارس عجوز جلس أمام الباب.
سألته:
ـــهل تعرف هذا المكان؟
نظر إليها طويلًا.
ثم قال:
ـــكنت أعرفه.
ـــوماذا كان هنا؟
قال:
ـــمكتب.
ـــلمن؟
خفض الرجل عينيه.
ـــلأناس لم يكونوا يحبون الأسئلة.
توقفت.

ـــهل جاء رجل اسمه...؟
قبل أن تكمل، قال:
ـــمالك.
اتسعت عيناها.
ـــتعرفه؟
ضحك الرجل ضحكة قصيرة بلا فرح.
ـــمالك لا يُنسى.
ـــأين هو؟
ـــخرج من هنا قبل ساعة.
ـــوحده؟
نظر إليها.
ـــلا.
ثم فتح الباب.
ـــكان معه رجل آخر.
شعرت خديجة بأن قلبها أسرع من خطواتها.
ـــمن؟
قال الحارس:
ـــرجل يشبه والدك.

الفصل الثالث: الغرفة رقم سبعة

دخلت خديجة المبنى.
كان الهواء في الداخل ثقيلاً برائحة الورق والرطوبة.
قادها الحارس إلى ممر ضيق.
توقف أمام باب.
رقمه **7**.
قال:
ـــهنا كان يجلس والدك.
لم تلمس المقبض.
ـــأبي؟
ـــنعم.
ـــمتى؟
ـــمنذ سنوات.
قالت:
ـــلكنه لم يكن يعمل هنا.
أجاب الرجل:

ـــلم يكن أحد يعمل هنا بالاسم الحقيقي.
فتح الباب.
دخلت.
غرفة صغيرة.
مكتب.
كرسي.
خزانة.
وستارة رمادية.
على الجدار كانت هناك خريطة قديمة لصنعاء.
اقتربت منها.
كانت هناك علامات بالقلم الأحمر.
تواريخ.
أسهم.
دوائر.
وفي منتصف الخريطة نقطة واحدة.
البيت القديم.
قالت خديجة:
ـــماذا كان يبحث عنه أبي؟
أجاب الحارس:
ـــلم يكن يبحث عن شيء.
ثم أضاف:
ـــكان يحاول أن يمنع شيئًا من الوصول إليك.
استدارت نحوه.
ـــماذا؟
لكن الرجل لم يجب.
كان ينظر إلى النافذة.
ثم قال:
ـــتأخرنا.
ـــعن ماذا؟
سمعت خديجة صوت خطوات في الممر.
قال الحارس:
ـــلقد عرفوا أنك هنا.

الفصل الرابع: الدفتر الأزرق
فتح الحارس درجًا سريًا في المكتب.

أخرج دفترًا أزرق.
قال:
ـــخذه.
ـــما هذا؟
ـــآخر شيء تركه والدك.
فتحته.
كانت الصفحات الأولى فارغة.
ثم وجدت في منتصفه رسالة:
»خديجة، إذا وصلتِ إلى هنا، فهذا يعني أن مالك فشل في إبعادك عن الحقيقة«.
توقفت.
قلبت الصفحة.
»لا تبحثي عني في الأماكن التي يقولون إنني كنت فيها«.
صفحة أخرى:
»ابحثي عن المكان الذي لم يذكره أحد«.
ثم صفحة بيضاء.
صفحة أخرى.
ثم كلمة واحدة:
»الحديدة«.
رفعت خديجة رأسها.
قالت:
ـــالحديدة؟
هز الحارس رأسه.
ـــنعم.
ـــماذا يوجد هناك؟
نظر إليها.
ـــشيء أخفاه والدك قبل اختفائه.
ـــماذا؟
قال:
ـــلا أعرف.
ثم اقترب منها وقال:
ـــلكنني أعرف شيئًا واحدًا.
ـــماذا؟
ـــإذا كان والدك حيًا، فلن تجديه في صنعاء.

الفصل الخامس: مالك يعود

خرجت خديجة من المبنى.
كانت الشمس قد غابت.
وعند نهاية الشارع، رأت سيارة متوقفة.
عرفتها.
سيارة مالك.
اقتربت بحذر.
كان الباب مفتوحًا.
لم يكن مالك في الداخل.
لكن على المقعد الأمامي كان هناك شيء.
معطفه.
وتحته ورقة.
فتحتها.
»لا تثقي بالحارس«.
تجمدت.
رفعت رأسها.
كان الحارس يقف عند باب المبنى.
يراقبها.
صرخت:
ـــلماذا ترك مالك هذه الرسالة؟
لم يجب.
ثم أغلق باب المبنى.
وبدأ يمشي بعيدًا.
ركضت خلفه.
ـــتوقف!
لم يتوقف.
دخل زقاقًا ضيقًا.
وحين وصلت إليه لم يكن هناك.
اختفى.
لكن شيئًا سقط على الأرض.
مفتاح.
التقطته خديجة.
كان عليه رقم:
17.

الفصل السادس: الحقيقة التي لا تكفي

عادت إلى البيت قبل منتصف الليل.
كانت أمها تنتظرها.
وحين رأت المفتاح في يدها، تغيّر وجهها.
قالت:
ـــمن أين حصلتِ عليه؟
ـــمن رجل كان يعرف أبي.
ـــأي رجل؟
ـــلا يهم.
اقتربت الأم.
أمسكت المفتاح.
حدقت فيه طويلًا.
ثم قالت:
ـــهذا مفتاح والدك.
ـــماذا يفتح؟
لم تجب.
ـــأمي!
رفعت الأم رأسها.
وقالت:
ـــغرفة في محطة قديمة.
ـــأين؟
ـــالحديدة.
سكتت خديجة.
ثم قالت:
ـــكنت تعرفين؟
ـــنعم.
ـــومالك يعرف؟
ـــنعم.
ـــوأبي؟
ـــكان يعرف أكثر منا جميعًا.
ثم جلست الأم.
قالت بصوت خافت:
ـــلكن هناك شيئًا واحدًا لم أخبرك به.
اقتربت خديجة.
ـــماذا؟
قالت الأم:

ـــوالدك لم يختفِ في اليوم الذي قيل لك إنه اختفى.
شعرت خديجة أن الأرض تميل تحت قدميها.
ـــماذا تعنين؟
ـــرأيته بعد ذلك.
ـــمتى؟
ـــبعد عام كامل.
ـــأين؟
أغمضت الأم عينيها.
وقالت:
ـــفي الحديدة.
لم تتكلم خديجة.
كانت كل الطرق التي ظنت أنها تقود إلى الماضي قد بدأت فجأة تشير إلى المكان نفسه.
الحديدة.
لكن السؤال الأكبر ظل معلقًا:
إذا كانت أمها قد رأته بعد اختفائه...
فلماذا أخفت ذلك عنها كل هذه السنوات؟

الفصل السابع: الصورة التي تحركت
في تلك الليلة، فتحت خديجة الصورة القديمة مرة أخرى.
الصورة التي ظهر فيها والدها وهي طفلة، والرجل الغريب خلفهما.
وضعتها بجانب الصورة التي وجدتها في المكتب.
ثم لاحظت شيئًا لم تره من قبل.
في الصورة الأولى، كان والدها يضع يده على كتفها.
وفي الثانية، كان يرتدي المعطف نفسه.
المكان مختلف.
لكن التاريخ...
كان متطابقًا.
تحت الصورتين كان هناك تاريخ واحد.
17نوفمبر.
شعرت بقشعريرة.
فتحت دفتر أبيها.
وجدت في الصفحة الأخيرة سطرًا لم تنتبه إليه:
»في السابع عشر، يبدأ كل شيء من جديد«.
وفي اللحظة نفسها، وصلتها رسالة.
من رقم مجهول.

هذه المرة لم تكن جملة غامضة.
كانت ثلاثة أسماء:
خديجة.
مالك.
سالم.
ثم كلمة واحدة:
»واحد منكم يكذب«.
حدقت خديجة في الشاشة.
ولأول مرة لم تسأل:
من يكذب؟
بل سألت:
من منهم يعرف أنها بدأت تعرف؟
وفي مكان آخر من المدينة، كان رجل يطوي هاتفه، وينظر إلى صورة قديمة لرجل يشبه والد خديجة.
ثم قال لنفسه:
ـــلقد وصلت إلى المفتاح.
وسكت قليلًا.
ثم ابتسم.
ـــالآن ستذهب إلى الحديدة بنفسها.
ولم يكن يعلم أن خديجة، للمرة الأولى، لم تكن تسير نحو الفخ.
كانت تسير نحوه.

القسم التالي: سرّ مالك

الفصل الأول: الاسم الذي أخفته أمي

لم تنم خديجة تلك الليلة.

وضعت الأسماء الثلاثة أمامها على الطاولة:

خديجة.

مالك.

سالم.

ثم كتبت تحتها سؤالًا واحدًا:

من يكذب؟

لكنها، بعد لحظات، أضافت سؤالًا آخر:

ومنذ متى؟

كان السؤال الثاني أكثر رعبًا.

لأن الكذب الذي يستمر سنوات لا يعود مجرد كذبة.

يصير حياة كاملة.

مع أول ضوء، فتحت خديجة صندوق الصور القديم.

كانت تبحث عن أي شيء يجمع والدها بمالك.

صورة.

رسالة.

اسم.

تاريخ.

شيء صغير يمكن أن يمسك بطرف الخيط.

وبعد ساعة من البحث، وجدته.

ورقة مدرسية قديمة.

لم تكن تخصها.

بل تخص أمها.

في أعلى الصفحة اسمها قبل الزواج.

وتحته اسم آخر.

مالك الهاشمي.

توقفت خديجة.

لم يكن مالك صديق والدها إذن.

كان يعرف أمها قبل أبيها.

الفصل الثاني: قبل أبي

دخلت خديجة غرفة أمها وهي تحمل الورقة.

قالت:

ـــمن هو مالك؟
لم ترفع الأم رأسها.
ـــقلت لكِ.
ـــلا.
وضعت الورقة أمامها.
ـــلم تقولي شيئًا.
نظرت الأم إلى الاسم.
ثم أغمضت عينيها.
قالت:
ـــكان أخي.
تراجعت خديجة.
ـــماذا؟
ـــمالك كان أخي.
ـــخالي؟
أومأت.
جلست خديجة ببطء.
كل شيء تغير في لحظة.
الرجل الذي ظنته غريبًا، الرجل الذي ظهر في حياتها من العدم، كان من عائلتها.
قالت:
ـــلماذا لم أعرف؟
ـــلأن والدك طلب مني ألا أخبرك.
ـــلماذا؟
سكتت الأم طويلًا.
ثم قالت:
ـــلأن مالك كان قد مات بالنسبة إلينا.
ـــلكنه حي.
ـــجسده حي.
ثم أضافت:
ـــأما الرجل الذي عرفته قبل سنوات، فقد انتهى.
لم تفهم خديجة.
ـــماذا فعل؟
رفعت الأم عينيها.
ـــاختار أن يحمي شخصًا.
ـــمن؟
ـــأباك.

الفصل الثالث: ثلاثة أصدقاء

قبل سنوات طويلة، كان هناك ثلاثة رجال.

والد خديجة.

مالك.

وسالم.

لم يكونوا رجالًا مهمين في نظر الناس.

موظفون عاديون.

لكنهم كانوا يعرفون شيئًا لا ينبغي لموظفين عاديين أن يعرفوه.

بدأ الأمر بملفات مالية.

أرقام ناقصة.

أسماء موظفين.

رواتب لم تصل.

ثم اكتشفوا أن الأمر أكبر.

كان هناك من يستفيد من انهيار المؤسسات.

كلما اختفى راتب، ظهر مستفيد.

كلما تعطلت خدمة، ظهرت جهة تربح.

لكن المشكلة لم تكن في اكتشاف الأمر.

المشكلة كانت في إثباته.

قال مالك يومها:

ـــإذا تكلمنا، سنخسر كل شيء.

رد والد خديجة:

ـــوإذا سكتنا، سيخسر الناس كل شيء.

أما سالم فقال:

ـــإذن نبحث عن طريقة ثالثة.

كانت تلك الجملة هي بداية النهاية.

الفصل الرابع: خيانة مالك

قالت خديجة:

ـــلكنك قلتِ إنه حمى أبي.

أجابتها أمها:

ـــنعم.

ـــإذن لماذا اختفى؟

خفضت الأم صوتها.

ـــلأنه خانهم.

ـــمن خان؟
ـــالرجال الذين كانوا يتابعون الملف.
صمتت.
ثم قالت:
ـــلكنه لم يخن أباك.
رفعت خديجة رأسها.
ـــماذا فعل؟
قالت:
ـــأخذ نسخة من الملف.
ـــإلى أين؟
ـــإلى شخص آخر.
ـــمن؟
هنا ترددت الأم.
قالت:
ـــإليّ.
شهقت خديجة.
ـــأنت؟
أومأت.
ـــوالدك لم يكن يثق إلا بشخصين.
ـــمن؟
ـــمالك.
ثم سكتت.
ـــوأنا.

الفصل الخامس: لماذا الحديدة؟

وضعت خديجة خريطة أمام أمها.
ـــلماذا الحديدة؟
قالت:
ـــلأن مالك وضع هناك النسخة الأصلية.
ـــلماذا لم يحتفظ بها في صنعاء؟
ـــلأنهم كانوا يبحثون هنا.
ـــومن هم؟
نظرت الأم إلى النافذة.
ـــلا تبحثي عن اسم واحد.
ـــلماذا؟

ـــلأنك ستخطئين إذا ظننتِ أن هناك رجلًا واحدًا وراء كل شيء.
سألت خديجة:
ـــإذن ماذا يوجد في الحديدة؟
أجابتها:
ـــالحقيقة التي خاف والدك أن تقع في يد الشخص الخطأ.
ثم أضافت:
ـــلكن هناك شيء لم تعرفيه.
ـــماذا؟
ـــمالك لم يذهب إلى الحديدة وحده.
ـــمع من؟
نظرت الأم إليها.
ـــمعكِ.
تجمدت خديجة.
ـــأنا؟
ـــكنتِ طفلة.
ـــمتى؟
قالت الأم:
ـــفي الليلة التي قيل لكِ إن أباك مات فيها.

الفصل السادس: الذاكرة المكسورة

خرجت خديجة إلى الشرفة.
كانت تحاول أن تستعيد شيئًا من طفولتها.
رائحة البحر.
سيارة.
صوت رجل.
يد تمسك يدها.
ثم شيء آخر.
ضوء قوي.
صرخة.
ومرآة سيارة.
فتحت عينيها فجأة.
قالت:
ـــأتذكر.
وقفت أمها خلفها.
ـــماذا؟

ـــالبحر.
لم تجب.
ـــكنت في سيارة.
صمت.
ـــوكان هناك رجل يقود.
ثم التفتت إليها.
ـــكان مالك.
أومأت الأم.
ـــنعم.
ـــوأبي؟
ـــكان معنا.
ـــماذا حدث؟
لم تجب الأم.
صرخت خديجة:
ـــماذا حدث لأبي؟
قالت الأم:
ـــفي تلك الليلة، لم يمت والدك.
توقفت.
ثم أضافت:
ـــلكنه لم يعد معنا.

الفصل السابع: مالك يقول الحقيقة

في المساء، ظهر مالك.
كان يقف أمام الباب.
لم تتردد خديجة.
فتحت له.
قالت:
ـــخالي.
خفض رأسه.
كانت تلك الكلمة وحدها كافية لتغيّر وجهه.
ـــعرفتِ.
ـــنعم.
دخل.
جلس.
وبقي صامتًا.

قالت:
ـــأريد الحقيقة.
ـــأي حقيقة؟
ـــكلها.
ابتسم بحزن.
ـــلا توجد حقيقة كاملة.
ـــلا تستخدم معي هذا الكلام.
رفع عينيه.
ـــلأن الحقيقة الكاملة ستجعلك تكرهين أشخاصًا ربما لم يفعلوا ما تظنين أنهم فعلوه.
ـــوأنت؟
ـــأنا فعلت.
صمتت.
قال:
ـــأنا خذلت أباك.
ـــكيف؟
ـــكان يريد العودة إليك.
ـــوأنت منعته؟
ـــنعم.
ـــلماذا؟
أغمض عينيه.
ـــلأنهم كانوا يراقبوننا.
ثم قال:
ـــكان والدك يستطيع أن يعود إليك، لكنه كان سيقودهم إليك.
سألته:
ـــفاخترت أن يختفي؟
ـــاخترت أن تختفي الحقيقة معه.
ـــونجحت؟
هز رأسه.
ـــلا.
ـــلماذا؟
نظر إليها.
ـــلأنك ورثتِ عنه الشيء الوحيد الذي كنت أتمنى ألا ترثيه.
ـــماذا؟
قال:
ـــالعناد.

وللمرة الأولى منذ عرفته، ابتسمت خديجة.
لكن ابتسامتها لم تدم طويلًا.
قالت:
ـــأين أبي؟
تغير وجه مالك.
ثم قال:
ـــهذا هو الجزء الذي لم أستطع أن أخبرك به.
ـــلماذا؟
ـــلأنني لا أعرف إن كان حيًا.
ساد الصمت.
ثم أخرج مالك مفتاحًا آخر.
ووضعه أمامها.
كان مطابقًا تمامًا للمفتاح الذي وجدته.
قال:
ـــالمفتاح الأول يفتح الباب.
ثم دفع المفتاح الثاني نحوها.
ـــوهذا يفتح ما وراء الباب.
سألته:
ـــماذا يوجد هناك؟
قال:
ـــرسالة تركها والدك.
ـــمتى كتبها؟
نظر مالك إليها طويلًا.
وقال:
ـــبعد أن اختفى.

الفصل الثامن: الرسالة الأخيرة

في تلك الليلة، لم يذهبوا إلى الحديدة.
لم تكن خديجة مستعدة.
لكنها فتحت الرسالة.
كان خط أبيها واضحًا.
كتب:
»خديجة، إذا وصلت إليك هذه الرسالة، فقد فشلنا في إخفاء الحقيقة«.
ثم:
»لا تلومي أمك«.

توقفت.
ثم قرأت:
»ولا تثقي بمالك ثقة عمياء«.
رفعت عينيها.
نظر مالك إليها.
لم يقل شيئًا.
واصلت:
»مالك أنقذ حياتي مرة، ثم كاد أن يضيّعها مرة أخرى«.
قلبت الصفحة.
كان السطر الأخير أقصر من كل ما سبقه:
»إذا أردتِ أن تعرفي لماذا فعل ذلك، اسأليه عن الطفل الثالث«.
توقفت خديجة.
رفعت رأسها ببطء.
ـــأي طفل ثالث؟
لم يجب مالك.
كانت ملامحه قد تغيرت.
قالت:
ـــمالك؟
ظل صامتًا.
ثم قال أخيرًا:
ـــلأنك لستِ الطفلة الوحيدة التي خرجت من تلك الليلة.
توقفت أنفاس خديجة.
ـــماذا تعني؟
رفع مالك عينيه إليها.
وقال:
ـــكان هناك طفل آخر.
ثم أضاف:
ـــوهذا الطفل هو السبب الحقيقي في اختفاء والدك.
وفي مكان بعيد، كان هاتف مجهول يرن.
وعلى شاشته ظهرت رسالة واحدة:
»لقد أخبرها عن الطفل«.
ثم جاء الرد:
»إذن لم يعد أمامنا إلا أن نجد الطفل قبلها«.

القسم الثالث: الرجل الذي كان يعرف أكثر مما ينبغي

لم تكن خديجة تخشى الرجال الذين يرفعون أصواتهم.

كانت تخشى أولئك الذين يتحدثون بهدوء.

فالصوت المرتفع يعلن غضبه، والغضب يمكن فهمه، وربما يمكن الهرب منه. أما الهدوء، حين يأتي في المكان الخطأ والوقت الخطأ، فإنه يشبه بابًا مغلقًا لا تعرف ما الذي يقف خلفه.

ومنذ أن بدأت تبحث عن أبيها، كان هناك رجل واحد يزداد هدوؤه كلما ازدادت هي خوفًا.

مالك.

لم تكن تعرف أين ينتهي دوره في الحكاية وأين تبدأ الحكاية نفسها.

كان يظهر حين تحتاجه، ويختفي حين تسأله، ويعرف من الأشياء ما لا ينبغي لرجل في موقعه أن يعرفه.

وفي تلك الليلة، أدركت خديجة أن الوقت قد حان لتسأله السؤال الذي ظلت تؤجله.

لم تتصل به.

لم ترسل إليه رسالة.

ذهبت إليه.

كان المكان مقهى صغيرًا في أحد الأزقة القديمة، بعيدًا عن الشوارع التي تعج بالناس.

جلست خديجة في الزاوية التي لا يصل إليها الضوء كاملًا.

كانت تراقب الباب.

دخل مالك بعد دقائق.

لم ينظر يمينًا ولا يسارًا.

كأنه يعرف أنها هنا.

جلس أمامها وقال:

ـــتأخرتِ.

رفعت عينيها إليه.

ـــكنتَ تعرف أنني سأجيء؟

ابتسم ابتسامة قصيرة.

ـــكنت أعرف أنك ستصلين إلى هذه النقطة.

ـــأي نقطة؟

لم يجب.

وضعت أمامه الورقة القديمة التي وجدتها بين أوراق أبيها.

لم تتغير ملامحه.

وهنا شعرت خديجة بالخوف.

لأنها كانت تنتظر منه الدهشة.

لكنه لم يندهش.

قالت:

ـــأنت رأيت هذه الورقة من قبل.
ظل صامتًا.
ـــأليس كذلك؟
قال أخيرًا:
ـــنعم.
شعرت بشيء بارد يسري في أطرافها.
ـــأين؟
نظر إليها طويلًا.
ثم قال:
ـــعند أبيك.

لم يكن أبوها قد اختفى في اليوم الذي أخبروها فيه أنه اختفى.
كانت تلك أول حقيقة سقطت بينهما.
قال مالك:
ـــأبوك كان يعرف أن هناك من يراقبه.
ـــمن؟
ـــهذا هو السؤال الذي كنت أحاول أن أمنعك من طرحه.
ضحكت خديجة، لكن ضحكتها خرجت مكسورة.
ـــتمنعني؟
ثم اقتربت منه قليلًا وقالت:
ـــومن أعطاك الحق في أن تمنعني من معرفة الحقيقة عن أبي؟
خفض مالك عينيه.
وللمرة الأولى رأته خديجة لا كرجل غامض، بل كرجل يحمل شيئًا أثقل من قدرته على حمله.
قال:
ـــأبوك لم يكن خائفًا على نفسه.
ـــكان خائفًا عليّ؟
هز رأسه.
ـــكان خائفًا على الجميع.
سكتت.
ثم قالت:
ـــوماذا كنت أنت بالنسبة إليه؟
رفع عينيه إليها.
وكان الجواب في عينيه قبل أن ينطق.
ـــكنتُ ابنه.
تجمدت.

لم تفهم.
ـــماذا قلت؟
ـــلم يكن أبي بالدم.
ـــأبيك؟
ـــالرجل الذي تبحثين عنه كان أكثر من أب لكِ.
ابتلعت ريقها.
ـــتكلم بوضوح.
تنفس مالك ببطء.
ـــأبوك رباني معه سنوات.
ثم أضاف:
ـــوكان يريد مني شيئًا واحدًا.
ـــماذا؟
ـــإذا حدث له شيء، أحميك.

خرجت خديجة من المقهى قبل أن ينتهي الحديث.
كانت المدينة من حولها تسير كأن شيئًا لم يحدث.
باعة ينادون.
سيارات تعبر.
أبواب تُغلق.
أطفال يركضون.
امرأة تحمل كيس خبز.
رجل يساوم على سعر الخضار.
كل شيء طبيعي.
وهذا ما أخافها أكثر.
كيف يمكن للعالم أن يستمر بصورة طبيعية، بينما تنهار حياة إنسان في داخله؟
كانت تمشي دون أن تعرف إلى أين.
وفي رأسها جملة واحدة:
مالك كان يعرف أبي.
لكنها لم تكن المشكلة.
المشكلة أن مالك كان يعرف اختفاء أبي قبل أن تعرفه هي.

في منتصف الطريق، رن هاتفها.
رقم مجهول.
ترددت.
ثم أجابت.

لم تسمع شيئًا.
قالت:
ـــمن؟
صمت.
ثم جاء صوت رجل مسن:
ـــلا تثقي بمالك.
انقطع الاتصال.
وقفت خديجة في مكانها.
لم يكن الصوت غريبًا تمامًا.
كان مألوفًا.
مألوفًا إلى درجة جعلتها تبحث في ذاكرتها عن صاحبه.
ثم تذكرت.
كان الصوت نفسه الذي سمعته ذات مرة في تسجيل قديم تركه أبوها.
لكن التسجيل كان مشوشًا.
أما الآن فقد كان الصوت واضحًا.
قالت لنفسها:
ـــمستحيل.
ثم جاءتها رسالة واحدة.
لم يكن فيها سوى عنوان.
عنوان بيت قديم في صنعاء.
البيت الذي عاشت فيه طفولتها.
البيت الذي أقسمت أمها أنه بيع منذ سنوات.

وصلت خديجة قبل الغروب.
كان الباب الخشبي القديم لا يزال موجودًا.
وضعت يدها عليه.
وتذكرت يد أبيها.
كان يفتح هذا الباب كل مساء، ثم ينادي:
ـــخديجة!
فتأتيه راكضة.
وقفت لحظات.
ثم دفعت الباب.
انفتح.
لم يكن البيت خاليًا.
كانت هناك رائحة غبار قديم، وشيء آخر.

رائحة الورق.
تقدمت.
الغرفة التي كان أبوها يعمل فيها كانت مغلقة.
وجدت المفتاح فوق الرف.
كأن أحدًا وضعه هناك قبل دقائق.
فتحت الباب.
وفي الداخل لم تجد مالك.
وجدت شيئًا أخطر.
صورة.
كانت الصورة تجمع أربعة أشخاص.
أبوها.
أمها.
رجل لم تعرفه.
ومالك.
لكن مالك في الصورة كان أصغر بكثير.
وبجانب الصورة ورقة كتب عليها أبوها بخط يده:
"إذا وصلت خديجة إلى هنا، فهذا يعني أنني لم أستطع العودة".
ارتجفت يدها.
تابعت القراءة.
"يا خديجة، لا تبحثي عن الرجل الذي أخذني".
توقفت.
ثم قرأت السطر التالي:
"ابحثي عن الرجل الذي جعلني أختفي".
سقطت الورقة من يدها.
وفي اللحظة نفسها سمعت صوتًا خلفها.
ـــكان يجب ألا تقرئي هذه الرسالة.
استدارت.
كان مالك واقفًا عند الباب.
لكن هذه المرة لم يكن وحده.
كان خلفه الرجل الذي ظهر في الصورة.
الرجل الذي لم تعرفه طوال حياتها.
والذي كانت تعرف الآن، بطريقة لم تفهمها بعد، أنه كان يعرف أباها أكثر مما ينبغي.
نظر الرجل إليها وقال:
ـــأخيرًا يا خديجة.
قالت:

ـــمن أنت؟
ابتسم.
ثم قال:
ـــأنا الرجل الذي كان أبوك يخاف أن تعرفي اسمه.
ساد الصمت.
وفي الخارج بدأت أضواء صنعاء تشتعل واحدة تلو الأخرى.
أما داخل البيت القديم، فقد انطفأ آخر شيء بقي من براءة خديجة.
لأنها فهمت أخيرًا أن اختفاء أبيها لم يكن نهاية قصة.
كان بدايتها.

القسم الرابع: الحقيقة التي لا تترك أحدًا كما كان

لم تتحرك خديجة.

كان الرجل يقف أمامها، ومالك خلفه، والبيت القديم يحتفظ بصمته كأنه يعرف أن بعض الأسرار إذا خرجت من الجدران، فلن تعود إليها أبدًا.

قالت خديجة:

ـــأريد اسمه.

نظر الرجل إلى مالك.

ثم عاد إليها.

ـــاسمي لا يهم.

أجابته:

ـــكل شيء في هذه القصة كان يقول إن الأسماء لا تهم. أبي اختفى، ومالك كذب، وأنت ظهرت من العدم... ثم تريد مني أن أصدق أن الأسماء لا تهم؟

ابتسم الرجل.

ـــلهذا السبب اختارك أبوك.

ـــلم يخترني أحد.

ـــبل اختارك منذ كنت طفلة.

تراجعت خطوة.

ـــلماذا؟

لم يجب الرجل مباشرة.

جلس على الكرسي الخشبي القديم، ذلك الكرسي الذي كان أبوها يجلس عليه كل مساء.

وقال:

ـــلأن أباك كان يعرف أن الحقيقة ستصل إليك يومًا.

ثم أخرج ظرفًا بنيًا.

ووضعه أمامها.

كان عليه اسمها.

خديجة.

بخط أبيها.

فتحت الظرف.

كان بداخله تسجيل صوتي.

ضغطت زر التشغيل.

خرج صوت أبيها.

متعبًا.

أبطأ مما تتذكره.

لكنه صوته.

ـــخديجة... إذا كنت تسمعين هذا، فقد فشلت في العودة إليك.
أغمضت عينيها.
تابع الصوت:
ـــلا تصدقي كل ما سيقال لك عني.
ثم صمت قليلًا.
ـــولا تصدقي كل ما سيقال لك عن مالك.
فتحت عينيها.
نظرت إليه.
كان واقفًا بلا حركة.
قال التسجيل:
ـــمالك لم يخنك.
رفعت خديجة رأسها.
لكن التسجيل لم يمنحها فرصة للراحة.
ـــلكنه أخفى عنك الحقيقة.
توقف الصوت.
ثم عاد:
ـــلأنني طلبت منه ذلك.
شهقت خديجة.
ـــلماذا؟
جاءها الجواب من التسجيل:
ـــلأن الحقيقة في زمن الخوف قد تكون أخطر من الكذبة.
ثم سمعته يقول:
ـــالرجل الذي أمامك ليس من بدأ كل شيء.
نظرت إلى الرجل.
كان وجهه ساكنًا.
ـــلكنه آخر من بقي ممن يعرفون البداية.
وانقطع التسجيل.

قالت خديجة:
ـــالآن تكلم.
رفع الرجل عينيه.
ـــأبوك كان يعمل في الإعلام، لكن عمله لم يكن السبب الحقيقي وراء اختفائه.
ـــماذا كان السبب؟
ـــكان يجمع شهادات ووثائق عن شبكة من الأشخاص استغلوا الخوف والحاجة والصمت.
توقفت.

لم تكن القصة عن شخص واحد.
كانت أكبر.
أوسع.
أكثر قسوة.
قال الرجل:
ـــكان يريد أن يكشف كل شيء.
ـــومنعه أحد؟
ـــنعم.
ـــأنت؟
هز رأسه.
ـــأنا حاولت أن أحميه.
ضحكت خديجة بمرارة.
ـــكل من في هذه القصة يدّعي أنه كان يحمي أبي.
ثم أشارت إلى مالك.
ـــوهو أيضًا؟
قال مالك:
ـــنعم.
استدارت إليه.
ـــفلماذا كذبت عليّ؟
خفض رأسه.
ـــلأن أباك طلب مني أن أجعلك تكرهينني إن لزم الأمر.
صمتت.
ـــكان يريدك بعيدة.
ـــعن ماذا؟
ـــعن الحقيقة.
قال الرجل:
ـــوعنّا.

بدأت خديجة تفهم.
الأوراق التي وجدتها.
الرسائل.
الاتصالات.
اختفاء الأشخاص الذين تحدثوا معها.
الخوف الذي عاشته أسرتها.
لم تكن أحداثًا منفصلة.

كانت أجزاء من شيء واحد.
شيء ظل يتحرك في الظلام بينما كانت هي تنظر إلى كل حادثة وحدها.
قالت:
ـــوأبي؟
لم يجب أحد.
قالت بصوت أعلى:
ـــأين أبي؟
طال الصمت.
ثم قال الرجل:
ـــمات.
لم تتحرك.
كأن الكلمة لم تصل إليها.
ـــماذا قلت؟
ـــمات منذ سنوات.
هزت رأسها.
ـــلا.
ـــخديجة...
ـــلا!
صرخت.
ارتد صوتها في البيت.
ـــكذبتم عليّ سنوات!
تقدم مالك.
ـــخديجة...
ـــلا تقترب.
توقف.
قالت:
ـــتركني أبحث عنه كل هذه السنوات؟
قال الرجل:
ـــكان يريدك أن تظلي حية.
ـــوأنا كنت أريده حيًا!
كانت تلك أول مرة تبكي فيها أمامهما.
لم تبكِ على أبيها فقط.
بكت على السنوات التي قضتها وهي تفتح الأبواب بحثًا عن رجل لم يعد خلفها.
بكت على كل مرة سمعت فيها طرقًا على الباب وظنت أنه عاد.
بكت على أمها التي ماتت وهي تحتفظ بسر لم تستطع حمله.

وبكت على نفسها.
لأنها أدركت أن حياتها كلها كانت مبنية على غياب رجل.
والآن عرفت أن الغياب لم يكن ينتظر عودته.
كان ينتظر أن تعرف الحقيقة.

قال مالك:
ـــهناك شيء آخر.
رفعت وجهها.
ـــماذا بقي؟
أخرج من جيبه مفتاحًا صغيرًا.
وضعه أمامها.
ـــهذا كان مع أبيك.
نظرت إليه.
ـــأين يفتح؟
قال:
ـــلا أعرف.
ابتسمت بمرارة.
ـــللمرة الأولى تقول الحقيقة.
قال:
ـــنعم.
ثم أضاف:
ـــلأنني كنت أخشى أن أعرف.
أخذت المفتاح.
كان باردًا.
لكنها شعرت أنه أثقل من الحديد.
قال الرجل:
ـــأبوك ترك لك شيئًا آخر.
ـــماذا؟
ـــالحقيقة كاملة.
ـــأين؟
نظر إلى الجدار.
ـــخلف الصورة.
اقتربت خديجة.
نزعت الصورة القديمة من مكانها.
وجدت تجويفًا صغيرًا.

وفي داخله دفتر.
فتحته.
كانت الصفحات مليئة بالأسماء والتواريخ والأماكن.
وفي الصفحة الأخيرة جملة واحدة:
"إذا وصلتِ إلى هنا، فلا تحاولي الانتقام".
تحتها:
"افعلي ما عجزت أنا عن فعله: تكلمي".

رفعت خديجة الدفتر.
قالت:
ـــهذا هو الثمن إذن.
سألها مالك:
ـــأي ثمن؟
قالت:
ـــأن أعرف الحقيقة ثم أعيش معها.
لم يجب.
قالت:
ـــأن أعرف أن أبي مات، وأن أمي كانت تعرف، وأنك كنت تعرف، وأن هذا الرجل كان يعرف...
ثم نظرت إليهما.
ـــوأنني طوال هذه السنوات كنت الوحيدة التي لا تعرف شيئًا.
قال الرجل:
ـــلم تكوني الوحيدة.
نظرت إليه.
ـــماذا تقصد؟
قال:
ـــكان هناك آخرون.
ثم أشار إلى الدفتر.
ـــأسماء هؤلاء لم تظهر هنا.
قلبت خديجة الصفحات.
وجدت صفحة ممزقة.
وعلى الحافة بقيت جملة واحدة:
"الشخص الذي تبحث عنه خديجة ليس في الماضي".
توقفت.
ـــماذا يعني هذا؟

لم يجب الرجل.
نظر إلى مالك.
فهمت خديجة من نظراتهما أن الحقيقة لم تنته.
بل كانت قد وصلت إلى أخطر نقطة.
قالت:
ـــهناك شخص آخر.
قال مالك:
ـــنعم.
ـــحي؟
لم يجب.
رفعت صوتها:
ـــهل هو حي؟
قال الرجل:
ـــنعم.
ثم أضاف:
ـــوهو يعرف أنك وصلتِ إلى الحقيقة.
في تلك اللحظة رن هاتف خديجة.
رقم مجهول.
نظرت إلى مالك.
ثم أجابت.
لم يتكلم أحد.
فقط جاءها صوت من الطرف الآخر.
صوت رجل.
هادئ.
قريب.
وقال:
ـــكان يجب أن تتركي الماضي مدفونًا يا خديجة.
تجمدت.
لأنها تعرف هذا الصوت.
كانت قد سمعته عشرات المرات.
ليس في الهاتف.
ولا في التسجيلات.
بل في حياتها اليومية.
كان صوت رجل ظنت طوال سنوات أنه مجرد شاهد.
رجل لم يخطر ببالها يومًا أنه يمكن أن يكون جزءًا من الحكاية.

قال الصوت:
ـــالآن، بعدما عرفتِ الحقيقة، لم يعد الخطر عليكِ وحدك.
انقطع الاتصال.
نظرت خديجة إلى مالك.
قالت:
ـــمن كان؟
لكن مالك لم يجب.
لأنه كان ينظر إلى الباب.
وكان الباب يُفتح ببطء.
ومن خلفه ظهر رجل آخر.
رجل لم تحتج خديجة إلى أن يسألها أحد عن اسمه.
فقد عرفته فورًا.
كان الرجل الذي كانت تثق به أكثر من الجميع.
وكان يحمل في يده صورة قديمة لأبيها.
وقال:
ـــأبوك أخطأ في شيء واحد.
سكت لحظة.
ثم قال:
ـــظن أن الحقيقة إذا وصلت إليك ستجعلك تخافين.
نظر إلى الدفتر في يدها.
ـــلكنه لم يعرف أنها ستجعلك تبحثين عني.
رفعت خديجة رأسها.
وللمرة الأولى منذ بدأت الحكاية، لم تشعر بالخوف.
شعرت بشيء آخر.
الغضب.
وضعت الدفتر تحت ذراعها وقالت:
ـــإذن لن أبحث عنك.
صمت الرجل.
قالت:
ـــسأجبرك أنت على أن تشرح.
ثم أغلقت الدفتر.
وفي الخارج، كانت المدينة تواصل حياتها.
لكن خديجة لم تعد المرأة التي دخلت ذلك البيت.
كانت قد دفعت ثمن الحقيقة:
فقدت أباها للمرة الثانية.

وفقدت ثقتها في أقرب الناس إليها.
وفقدت الحياة التي كانت تعرفها.
لكنها، للمرة الأولى، امتلكت شيئًا لم يستطع أحد أن ينتزعه منها.
صوتها.
وكان ذلك الصوت هو الشيء الوحيد الذي لم يستطع الخوف أن يسرقه.

القسم الأخير: ما بعد الحقيقة

الفصل الأول: الصباح الذي لم يشبه الأمس

طلع الصباح على صنعاء هادئًا.

كأن المدينة لم تسمع شيئًا في الليل.

كأن البيوت لم تحفظ أسرارًا.

كأن الآباء لم يختفوا، والأمهات لم ينتظرن، والموظفين لم يقفوا في طوابير طويلة أمام أبواب مغلقة، والأطفال لم يتعلموا مبكرًا أن بعض الأسئلة ينبغي ألا تُطرح.

وقفت خديجة أمام النافذة.

كان الضوء يدخل الغرفة ببطء.

وضعت يدها على الزجاج.

وفكرت في أبيها.

كم مرة وقف هنا؟

هل كان يعرف أن ابنته ستقف في المكان نفسه يومًا، وهي تحمل دفتره بدلًا من يده؟

ابتسمت بحزن.

ثم قالت:

—وجدتك أخيرًا يا أبي.

ولم تكن تقصد جسده.

كانت تقصد صوته.

كان الدفتر أمامها.

لم تعد تخشاه.

في الأيام الأولى كان يبدو لها كأنه شيء حي.

كلما فتحته، خرج منه وجه.

اسم.

قصة.

خوف.

لكنها الآن فهمت لماذا تركه أبوها لها.

لم يرد منها أن تنتقم.

لم يرد منها أن تطارد أحدًا.

كان يريد شيئًا أصعب.

أن تتكلم.

لكن الكلام، كما اكتشفت، ليس مجرد فتح الفم.

الكلام مسؤولية.

والحقيقة ليست سكينًا تمنحها لمن تغضب منه.

الحقيقة شيء يجب أن تحمله دون أن تتحول إلى نسخة أخرى من الذين آذوا الآخرين باسمها.

الفصل الثاني: مالك

وجدته في المكان نفسه الذي التقته فيه أول مرة.

لم يكن ينتظرها هذه المرة.

كان ينظر إلى الشارع.

قالت:

ـــكنت أعرف أنك ستكون هنا.

ابتسم.

ـــوأنا كنت أعرف أنك ستأتين.

جلست.

لم تتحدث طويلًا.

قالت:

ـــهل كنت تحب أبي؟

أجاب بعد لحظة:

ـــأكثر مما أحب نفسي.

ـــولهذا كذبت عليّ؟

ـــنعم.

نظرت إليه.

ـــوهل تندم؟

فكر.

ـــكل يوم.

صمتت.

ثم قالت:

ـــلن أسامحك الآن.

أطرق رأسه.

ـــأعرف.

ـــوربما لن أسامحك أبدًا.

رفع عينيه إليها.

ـــأعرف ذلك أيضًا.

قالت:

ـــلكنني لن أكرهك.

استغرب.

ـــلماذا؟

قالت:

ـــلأن أبي ترك لي ما يكفي من الكراهية. لا أريد أن أحمل المزيد.

كانت تلك اللحظة أول مرة يبكي فيها مالك أمامها.
لم تحاول مواساته.
تركته يبكي.
فبعض الدموع لا تحتاج إلى يد تمسحها.
تحتاج فقط إلى شاهد لا يسخر منها.

الفصل الثالث: ماذا تفعل بالحقيقة؟
لم تنشر خديجة الدفتر كاملًا.
وهذا القرار أثار دهشة من عرفوا القصة.
قال لها بعضهم:
ـــإذا كنت تريدين كشف الحقيقة، فلماذا تخفين شيئًا؟
كانت تعرف الإجابة.
لأن في الدفتر أسماء أشخاص لم يرتكبوا شيئًا سوى أنهم مروا في المكان الخطأ.
ولأن هناك تفاصيل لو خرجت بلا سياق، لتحولت الحقيقة إلى ظلم جديد.
جلست أسابيع.
راجعت الأوراق.
قارنت التواريخ.
بحثت عن الشهادات.
استمعت إلى التسجيلات.
وتحدثت مع أشخاص عاشوا الأحداث.
لم تعد خديجة تبحث عن قصة.
كانت تبحث عن الحقيقة كما هي.
لا كما ترغب أن تكون.
وفي النهاية بدأت تكتب.
لم تكتب:
"أنا ابنة رجل اختفى".
كتبت:
"أنا واحدة من الذين تعلموا أن الصمت يمكن أن يكون إرثًا".
ثم تابعت.

نشرت أول تحقيق باسم مستعار.
لم تذكر اسم أبيها.
ولا اسم مالك.
ولا اسم الرجل الذي حرك الأحداث.
كانت تتحدث عن الناس.

عن الموظف الذي انقطع راتبه.
عن الأم التي قسمت الرغيف بين أطفالها ثم ادعت أنها شبعت.
عن الشاب الذي باع آخر ما يملك كي يشتري دواء لأمه.
عن الذين خافوا من الشكوى.
وعن الذين تعلموا أن النجاة أحيانًا تتطلب أن تخفض عينيك وتمضي.
لم يكن التحقيق صاخبًا.
لم يحمل شعارات.
لكنه انتشر.
وبعد أيام بدأت الرسائل تصل.
امرأة كتبت:
"ظننت أنني وحدي".
رجل كتب:
"أخيرًا أحد قال ما نراه كل يوم".
موظف كتب:
"لا أعرف إن كان هذا سيغير شيئًا، لكنني شعرت أنني لست منسيًا".
قرأت خديجة الرسائل واحدة واحدة.
وفهمت شيئًا لم يخبرها به أبوها.
الصوت لا يغيّر العالم دائمًا.
لكنه يمنع العالم من إقناع الإنسان بأنه غير موجود.

الفصل الرابع: الرجل الذي لم يعد يخيفها

بعد أسابيع جاءها اتصال.
كان هو.
الرجل الذي ظل في الظل.
قال:
ـــأوقفي ما تفعلينه.
كانت تعرف أنه يتوقع خوفها.
لكنها لم تخف.
قالت:
ـــلماذا؟
ـــلأنك لا تعرفين إلى أين سيقودك هذا.
ـــأعرف.
ـــأنت تعرضين نفسك للخطر.
قالت:
ـــأعرف.

صمت قليلًا.
ثم قال:
ـــأبوك كان أذكى منك.
ابتسمت.
ـــربما.
ثم أضافت:
ـــلكنه مات وهو يحاول أن يحميني.
سكت الرجل.
قالت:
ـــوأنا لن أعيش بقية حياتي مختبئة خلف موته.
انقطع الاتصال.
وضعت الهاتف على الطاولة.
ولم تشعر بالانتصار.
فالحقيقة لا تمنح المنتصرين دائمًا.
أحيانًا تمنحهم فقط القدرة على الوقوف.

الفصل الخامس: المدينة التي بدأت تتكلم

مرت الشهور.
لم تتغير صنعاء في ليلة.
لم تختفِ الطوابير.
لم تعد الرواتب في صباح واحد.
لم تصبح الشوارع أكثر أمانًا لأن خديجة كتبت.
الحقيقة لا تعمل بهذه السرعة.
لكن شيئًا صغيرًا تغير.
بدأ الناس يتحدثون.
امرأة قالت قصتها.
موظف أرسل وثيقة.
شاب كتب شهادة.
أم فتحت صندوقًا قديمًا وأخرجت رسالة احتفظت بها عشر سنوات.
كان الخوف لا يزال موجودًا.
لكنه لم يعد وحيدًا.
صار إلى جواره شيء آخر.
الشهادة.
والشهادة، حين تتكرر، تصبح ذاكرة.
والذاكرة حين يرفض أصحابها دفنها، تصبح مسؤولية.

الفصل السادس: الرسالة الأخيرة

في مساء شتوي، عادت خديجة إلى البيت القديم.

كان المكان خاليًا.

وضعت دفتر أبيها على الطاولة.

ثم أخرجت ورقة بيضاء.

وكتبت:

"يا أبي،"

توقفت.

ثم تابعت:

"كنت أظن أنني أبحث عنك لأعرف لماذا اختفيت".

"لكنني اكتشفت أنني كنت أبحث عن نفسي في المكان الذي تركتني فيه".

"كنت أظن أن الحقيقة ستعيدك إليّ".

"ثم فهمت أنها لن تفعل".

"الحقيقة لا تعيد الموتى".

"ولا تصلح كل ما انكسر".

"ولا تجعل الظالم نادمًا، ولا الخائف شجاعًا في لحظة واحدة".

"لكنها تفعل شيئًا واحدًا".

"تمنع الكذبة من أن تصبح التاريخ الوحيد".

وضعت القلم.

ثم كتبت السطر الأخير:

"سامحني لأنني تأخرت".

لم تعرف لماذا كتبتها.

فهي لم تكن تعرف إن كان أبوها سيسامحها.

لكنها كانت تعرف أنها سامحت نفسها.

خرجت من البيت.

كان الليل قد بدأ.

سارت في الشارع القديم.

سمعت صوت بائع ينادي.

وضجيج سيارة.

وضحت طفل.

وصوت امرأة تغلق نافذتها.

مدينة كاملة تعيش.

مدينة تخاف.

مدينة تحلم.
مدينة تخبئ الكثير.
رفعت خديجة رأسها.
كانت صنعاء أمامها كما عرفتها دائمًا.
لكنها لم تعد تراها بالطريقة نفسها.
في الماضي كانت ترى مدينة تخشى أن تتكلم.
أما الآن، فقد بدأت ترى مدينة تبحث عن الكلمات.
لم تكن تعرف ماذا سيحدث غدًا.
ربما ستُغلق الأبواب.
ربما ستعود التهديدات.
ربما يختفي أشخاص آخرون.
وربما يصل أحدهم إلى الحقيقة التي أخفتها هي أيضًا.
لكنها لم تعد تريد نهاية كاملة.
فالنهايات الكاملة تصلح للحكايات.
أما الحياة، فلا.

بعد أيام، وصلت إلى خديجة رسالة بلا اسم.
لم يكن فيها سوى سطر واحد:
"إذا كنتِ تريدين معرفة الحقيقة الأخيرة عن أبيك، تعالي إلى المكان الذي بدأ منه كل شيء".
قرأت الرسالة مرتين.
ثم طوتها.
وضعتها في الدفتر.
ولم تذهب.
ليس لأنها خافت.
بل لأنها أدركت أخيرًا أن الحقيقة ليست مطاردة لا تنتهي.
كانت تعرف ما تحتاج إلى معرفته.
وما لا تعرفه، قد يأتي يومه.
أو لا يأتي.
وهذا أيضًا جزء من الحياة.

وفي آخر الليل، فتحت خديجة نافذتها.
كان الهواء باردًا.
قالت بصوت منخفض:
ـــأنا هنا.
لم تكن تخاطب أحدًا.

أو ربما كانت تخاطب أباها.
أو مالك.
أو كل الذين رحلوا ولم يستطيعوا أن يقولوا كلمتهم.
ثم أغلقت النافذة.
وتركت الرسالة فوق الطاولة.
أما المدينة، فلم تنم.
ففي مكان ما، كان رجل يقرأ تحقيق خديجة.
وفي مكان آخر، كانت امرأة تكتب شهادتها الأولى.
وفي بيت بعيد، كان شخص يحتفظ بوثيقة لم يجرؤ على إخراجها بعد.
وكانت هناك أبواب كثيرة لم تُفتح.
وأسرار كثيرة لم تُكشف.
لكن شيئًا واحدًا لم يعد كما كان:
خديجة لم تعد تخاف من الحقيقة.
والمدينة التي كانت تخاف أن تتكلم...
بدأت تجد صوتها.

خاتمة الرواية

ربما كان يمكن لهذه الحكاية أن تنتهي لحظة عرفت خديجة الحقيقة.

كان يمكن أن نغلق الباب عند تلك اللحظة.

أن نقول إن الأب مات، وإن الأسرار انكشفت، وإن الرجل الذي عاش في الظل ظهر، وإن مالك قال ما كان يخفيه.

ثم نضع النقطة الأخيرة.

لكن الحياة لا تعرف النهايات التي نحبها.

الحقيقة لا تغلق الأبواب.

إنها تفتحها.

بابًا بعد باب.

وسؤالًا بعد سؤال.

ولهذا تركت خديجة بعض الأبواب مفتوحة.

ليس لأنها لم تجد الإجابات.

بل لأنها أدركت أن الإنسان لا يحتاج دائمًا إلى معرفة كل شيء كي يبدأ من جديد.

لقد خسرت خديجة أشياء كثيرة.

خسرت الصورة التي صنعتها لأبيها في طفولتها.

وخسرت يقينها بأن أقرب الناس إليها يقولون لها الحقيقة.

وخسرت جزءًا من تلك الفتاة التي كانت تظن أن الحياة يمكن أن تسير كما تخطط لها.

لكنها ربحت شيئًا لم تكن تعرف أنها تملكه.

ربحت صوتها.

والصوت، حين يولد بعد خوف طويل، لا يعود ملكًا لصاحبه وحده.

يصير أمانة.

أما صنعاء، فلم تتحول فجأة إلى مدينة بلا خوف.

ظل فيها الفقر.

وظلت الأسئلة معلقة.

وظلت الأبواب تُغلق في وجه أناس كثيرين.

وظل هناك من يخشى أن يقول ما يعرفه.

لكن شيئًا صغيرًا حدث.

صار بعض الناس يعرفون أن خوفهم ليس فرديًا.

وأن ما ظنوه عيبًا في حياتهم قد يكون جزءًا من حكاية أكبر.

وأن الإنسان حين يقول:

"حدث هذا معي".

فهو لا يروي قصة نفسه فقط.

بل يرفض أن تُمحى.

أما مالك، فقد بقي يحمل ما لا يستطيع أحد أن يحمله عنه.
لم يصبح بريئًا.
ولم يصبح مذنبًا في كل شيء.
بقي كما كان:
رجلًا أخطأ وهو يحاول أن يحمي.
وكذب وهو يظن أن الكذبة قد تنقذ.
وفهم، متأخرًا، أن حماية الإنسان من الحقيقة قد تكون شكلًا آخر من أشكال إيذائه.
وربما كانت تلك هي عقوبته الحقيقية.
أن يعيش وهو يعرف أنه كان يستطيع أن يقول الحقيقة أبكر.

وأما خديجة، فقد عادت إلى الكاميرا.
لكنها لم تعد المرأة نفسها التي كانت تحلم بأن تصبح مذيعة.
في البداية كانت ترى الكاميرا عينًا تراقبها.
ثم فهمت أنها يمكن أن تكون عينًا ترى الآخرين.
لم تعد تبحث عن الجملة التي تبدو جميلة.
كانت تبحث عن الجملة الصادقة.
والفرق بينهما كبير.
الجملة الجميلة قد تمر.
أما الصادقة، فقد تؤلم.
وقد تغضب.
وقد تفتح جرحًا.
لكنها تبقى.

في آخر ليلة من الرواية، جلست خديجة أمام مكتبها.
كان الدفتر القديم إلى جوارها.
والرسالة المجهولة لا تزال بين صفحاته.
لم تفتحها مرة أخرى.
أطفأت المصباح.
ثم وقفت أمام النافذة.
كانت صنعاء تحتها.
مدينة لا تزال تخبئ أكثر مما تقول.
ابتسمت خديجة.
وقالت:

ـــربما ليست هذه النهاية.
ثم أغلقت النافذة.
ولم نعرف هل كانت تقصد الحكاية أم حياتها.
لكننا نعرف شيئًا واحدًا:
أن المدينة التي كانت تخاف أن تتكلم...
لم تعد صامتة تمامًا.
ففي مكان ما، كانت أم تحكي لابنتها ما حدث.
وفي مكان آخر، كان رجل يخرج ورقة أخفاها سنوات.
وفي غرفة صغيرة، كان شاب يكتب للمرة الأولى ما رآه بعينيه.
وكانت خديجة تفتح حاسوبها لتكتب قصة جديدة.
لم تكن تعرف إلى أين ستقودها.
ولم تكن بحاجة إلى أن تعرف.
فبعض الطرق لا تُرسم قبل السير فيها.
وبعض الحقائق لا تصل إلينا كي تمنحنا الراحة.
إنها تصل كي تمنحنا الشجاعة لنعيش بعدها.
ولهذا، حين أشرقت شمس اليوم التالي، لم تكن صنعاء قد تغيرت.
لكن خديجة تغيرت.
وربما كان ذلك، في النهاية، هو التغيير الوحيد الذي يمكن أن يبدأ منه كل شيء.
تمت.

فهرس الرواية

م	القسم	الفصل	العنوان
—	**المقدمة**	—	**المدينة التي خافت أن تتكلم**
القسم الأول	**المدينة التي خافت أن تتكلم**	الفصل الأول	صنعاء التي لا تُرى من الكاميرا
		الفصل الثاني	امرأة من بين الناس
		الفصل الثالث	حين دخل الخوف إلى البيت
		الفصل الرابع	المواطن الذي فقد صوته
		الفصل الخامس	لقمة العيش
		الفصل السادس	الجوع ليس معدة فارغة
القسم الثاني	**حين بدأت المدينة تتكلم**	الفصل السابع	الكلمة التي لم تُقل
		الفصل الثامن	وجوه في العتمة
		الفصل التاسع	الرسالة الأولى
		الفصل العاشر	الرجل الذي يعرف أكثر مما ينبغي
		الفصل الحادي عشر	حين صار الماضي حاضرًا
		الفصل الثاني عشر	لا تسألي كثيرًا
القسم الثالث	**الخيوط التي لا يراها أحد**	الفصل الثالث عشر	مالك
		الفصل الرابع عشر	الرجل الذي سبقها إلى الحقيقة
		الفصل الخامس عشر	سرّ لم يكن سرًا
		الفصل السادس عشر	الباب المغلق
		الفصل السابع عشر	الاسم المحذوف
		الفصل الثامن عشر	من يراقب من؟
القسم الرابع	**البحث عن الأب**	الفصل التاسع عشر	الأب الغائب
		الفصل العشرون	أثر في ورقة قديمة
		الفصل الحادي والعشرون	شاهد لا يريد أن يتذكر
		الفصل الثاني والعشرون	الطريق إلى المكان المنسي
		الفصل الثالث والعشرون	الحقيقة التي تأخرت سنوات
		الفصل الرابع والعشرون	لماذا اختفى؟
القسم الخامس	**سرّ مالك**	الفصل الخامس والعشرون	مالك والعائلة
		الفصل السادس والعشرون	ما لم يخبرها به
		الفصل السابع والعشرون	الرجل الذي كان يعرف أباها
		الفصل الثامن والعشرون	الخيانة التي لم تكن خيانة
		الفصل التاسع والعشرون	آخر خيط في يد مالك
القسم السادس	**الرجل خلف الستار**	الفصل الثلاثون	من يحرك الخيوط؟
		الفصل الحادي والثلاثون	الاسم الذي لم يُذكر

		الفصل الثاني والثلاثون	خديجة في مواجهة الماضي
		الفصل الثالث والثلاثون	الرجل الذي يعرف سرها
		الفصل الرابع والثلاثون	لماذا أنا؟
		الفصل الخامس والثلاثون	حين سقط القناع
القسم السابع	**الذروة**	الفصل السادس والثلاثون	الحقيقة كاملة
		الفصل السابع والثلاثون	الثمن
		الفصل الثامن والثلاثون	ما لا يمكن استعادته
		الفصل التاسع والثلاثون	المواجهة الأخيرة
		الفصل الأربعون	لا أحد يخرج كما دخل
القسم الثامن	**ما بعد الحقيقة**	الفصل الحادي والأربعون	صباح مختلف
		الفصل الثاني والأربعون	ماذا تفعل الحقيقة بأصحابها؟
		الفصل الثالث والأربعون	المدينة التي بدأت تتكلم
		الفصل الرابع والأربعون	صوت خديجة
		الفصل الخامس والأربعون	الأبواب التي لم تُغلق
		الفصل السادس والأربعون	ما تركه الغائبون
		الفصل السابع والأربعون	حين لا يعود الصمت ممكنًا
—	**الخاتمة**	—	**ما بعد الحقيقة**